بعيداً عن الناس

تومــــــــاس هــاردى
تبـــسـيط : أ . ج . إير
ترجمة: عبدالحميد الجمال
مراجعة: مختار السويفى

المـؤلف

توماس هاردى شاعر وروائى حقق شهرة واسعة فى عالم الأدب من خـلال كتبه التى الفها عن مملكة وسيكس Wessex . واذا بحثت عن هذه المملكة على الخريطة فلن تجدها . فهى منطقة تقع فى جنوب غرب انجلترا ، وكانت فى يوم ما مملكة قائمة بذاتها ، وبها العديد من الآثار القديمة التى ترجع الى العصر الحجرى والعصر الحديدى . ويقع قلب مملكةوسيكس فىمقاطعة دورسـيت . ومركز مقاطعـــة دورسيت هو مدينـة دورشسـتر التى يسميهـا تومـاس هاردى باســـم

« كاستربردج » فى رواياته عن مملكة وسيكس : « تحت الشجرة الخضراء » ، « بعيدا عن الناس » .. « عودة المواطن » .. « عمدة كاستربردج » ، « تيس أوف ديربرفيل » وغيرها . فهذه الروايات تعطينا صورة حية صادقة عن الحياة فى دورسيت فى منتصف القرن التاسع عشر . وهى صورة ــ على حد قول توماس هاردى نفسه ــ لم تتغير فى خلال خمسمائة عام الا بقدر ضئيل للغاية . فنفس العائلات كانت تعمل فى نفس المزارع عبر القرون الزمنية حيث كانت تعيش فى أكواخ مسقوفة بالقش وقريبة من مبنى الكنيسة القديمة ومن فندق القرية الصغير حتى يمكن للناس الاستمتاع بالصداقة والعشرة الطيبة والانتعاش البهيج عقب الانتهاء من انجاز الأعمال اليومية الشاقة .

ولم يكن الناس يشعرون بالرغبة فى السفر والترحال ، اذ كانوا قانعين بالفصول السنوية المتغيرة ويشعرون بالارتياح والرضا عن حياتهمالتى تنحصر فى حرث الأراضى وجنى المحاصيل والاعتناء بالنعاج فى فترة الوضع والولادة وقص صوف الأغنام .

وعنوان هذا الكتاب مأخوذ من قصيدة شهيرة كتبها الشاعر . توماس جراى . وهى قصيدة تعقد مقارنة بين حياة القناعة والرضا والهدوء التى يعيشها الرجل القروى . وبين الجشع الصاخب لجماهير الناس القاطنين بالمدن . والغرور والأنانية للناس الجبابرة الأقوياء . وفى جو السلام الذى يسود احدى مزارع دورسيت قام توماس هاردى بنسج قصة مثيرة حيث صور لنا كيف أن غرور المرأة ورغبتها الجامحة فى جذب اعجاب الرجال بها قد جلب الموت والجنون على رجلين تنافسا على حبها . وبطل القصة وهو رجل قد نشأ فى بيئة متواضعة بالمقارنة بالرجلين سالفى الذكر كان شابا صغيرا يعمل بالرعى وكان يريد الفوز بتلك المرأة واتخاذها زوجة له ولكنه كان فقيرا للغاية وعلى نحو لا يرضى غرورها .

وقد ولد توماس هاردى فى عام ١٨٤٠ فى كوخ مسقوف بالقش فى مكان لا يبعد كثيرا عن دورشستر . وتلقى علومه ودراسته فى لندن عندما كان شابا صغيرا ، وكان يعود الى لندن ويتردد عليها من وقت

لآخر . ولذلك نجد أن مجتمع لندن كان يشكل خلفية لبعض كتاباته الا أن هذا المجتمع كان زائفا للغاية ، بحيث لم تنتج عنه روايات يمكن مقارنتها بالروايات الرائعة التى كتبها عن وسيكس .

وعندما توفى توماس هاردى فى عام ١٩٢٩ وضع جثمانه فى مقبرة كنيسة وستمنستر التى تضم رفات عظماء وأبطال الدولة . الا أن قلبه كان مدفونا فى قرية دورسيت الهادئة مسقط رأسه وهى القرية التى كان قلبه يهفو اليها دائما .

الفصل الأول

عندما كان « فارمر أوك » يبتسم كانت زاويتا فمه تنفرجان وتمتدان نحو أذنيه وتكاد عيناه تختفيان ، كما تظهر خطوط صغيرة حول عينيه شبيهة بالأشعة التى يرسمها الطفل لشروق الشمس .

كان الاسم الأول له هو « جبرييل » وهو فى أيام العمل كان رجلا يتصف بالحكمة والرأى الصائب والشخصية الممتازة . أما فى أيام الآحاد من كل أسبوع ، فقد كانت تسيطر عليه الآراء الغامضة ، كما

كان يشعر بعدم الارتياح وهو يرتدى أفضل ثيابه ·· كان يذهب الى الكنيسة فى أيام الآحاد الا أنه ـ غالبا ـ ما كان يفكر فى نوع الطعام الذى يمكن أن يتناوله فى وجبة الغداء كلما أراد الاصغاء للخطبة الدينية التى يلقيها الكاهن على الحاضرين ·

كان يمر بتلك الفترة المشرقة من حياة الانسان · اذ كان عقله وعاطفته فى حالة انفصال واضح حيث لم يتحدا بعد فى داخل كيانه بتأثير نفوذ زوجة وأسرة · وقصارى القول انه كان يبلغ من العمر ٢٨ عاما وغير متزوج ·

وفى صباح يوم محدد من شهر ديسمبر كان يسير عبر أحد حقوله الذى يقع على سفح تل نوركومب فوق الطريق الرئيسى الذى يؤدى الى تشوك نيوتن وكاستر بردج · وعندما القى نظرة على سياج من الشجيرات شاهد عربة يجرها حصان تصل الى الممر الضيق بين السياج وكان سائق العربة يسير الى جوارها ·

كانت العربة مطلية باللون الأصفر ومزدانة بألوان زاهية بهيجة ومحملة ببضائع منزلية · وفوق تلك البضائع كانت تجلس امرأة شابة جذابة · وبعد لحظات توقفت العربة فى مكان قريب للغاية منه ·

وقال سائق العربة : لقد طار باب العربة الخلفى يا آنسة !

فقالت الفتاة بصوت عذب : اذن فقد سمعت صوته وهو يسقط على الأرض · لقد سمعت صوتا لم أعرف مصدره عندما كنا نصعد التل !

وقال سائق العربة : سأرجع بسرعة للبحث عنه ! ·

ووقف حصانه ساكنا تماما بينما كانت أصوات وقع أقدامه تتلاشى تدريجيا مع الابتعاد عن العربة ·

وكانت الفتاة الجالسة فوق حمولة العربة ساكنة لا تبدى أية حركة ·· كانت محاطة بأمتعتها الخاصة بها والتى كانت تشتمل على طائر محبوس فى قفص

وقطة حبيسة فى سلة ٠ وبعد مرور بعض الوقت نظرت لأسفل ٠ ولم تكن نظراتها منصبة على القطة أو الطائر وانما على ربطة موجودة بينهما ٠ ثم أدارت رأسها لترى ما اذا كان سائق العربة قد بدأ يرجع اليها ٠ وبعدئذ قامت بفك الربطة واستخرجت منها مرآة صغيرة وبدأت تنظر لنفسها فى المرآة بانتباه شديد ٠

لقد كان صباحا مشرقا وكانت الشمس تسطع على الجاكيت الأحمر الزاهى الذى ترتديه ٠٠ وتسطع فى دفء على وجهها الوضاء وشعرها الأسود ٠ وفتحت شفتيها وابتسمت ، كانت الصورة رقيقة ٠ فالضعف الغريب للمرآة قد خرج الى ضوء الشمس الذى غلفه بنقاء الأصالة ٠ لم تكن هناك حاجة على الاطلاق لأن تنظر لنفسها فى المرآة ٠ فهى لم تقم بتعديل وتسوية وضع قبعتها على رأسها ، كما لم تقم بتسوية شعرها ٠ كل ما فعلته أنها اكتفت بالنظر الى نفسها كجزء جميل من انتاج الطبيعة الساحرة ٠

وبعدئذ سمعت خطوات سائق العربة فبادرت الى وضع المرآة فى المكان الذى اخذتها منه ٠

وعندما انصرفت العربة خرج جبرييل منخلف السياج وسار وراءها حتى البوابة الواقعة عند سفح التل وهو المكان الذى ينبغى أن تتوقف عنده العربة من أجل دفع ضريبة المرور على الطريق ٠ وعندما اقترب جبرييل سمع حوارا يدور بين سائق العربة والبواب المسئول عن البوابة بشأن بنسين ٠

وكان سائق العربة يقول : ان سيدتى الصغيرة تقول انها قد قدمت لك ما فيه الكفاية وانها لن تدفع أكثر من ذلك ٠

فقال البواب وهو يغلق البوابة : حسنا ٠ لن تستطيع سيدتك الصغيرة المرور من البوابة ٠٠

وراح جبرييل ينتقل ببصره بين البواب وسائق العربة ٠ ثم تقدم وقدم بنسين للبواب **وقال** : دعها تمر !

فنظرت الفتاة ذات الشعر الأسود والجاكيت الأحمر لأسفل ورمقت جبرييل بنظرة خالية من اى اهتمام وأمرت سائقها بمواصلة المسير دون أن تعبر عن

شكرها على الاطلاق · ربما لأنها لم تشعر بالرغبة فى ابداء الشكر والامتنان نظرا لأنه بدفعه لهذه النقود قد جعلها تفقد حجتها فى الاقنــاع ، ونحن نعرف كيف تنظر النساء لمعروف من ذلك النوع ·

ونظر البواب الى الفتاة وهى تمر من البوابة وقال :

ـ يا لها من فتاة جميلة !

فقال جبرييل : ولكنها لها اخطاؤها ··

ـ هذا صحيح · أيها الفلاح !

ـ وأشنع اخطائهـا هو الغرور · فالغرور هو عيبها الدائم ·· !

الفصل الثانى

كان الوقت فى منتصف الليل تقريبا عقب انتهاء اقصر يوم فى السنة · وكانت الرياح الشمالية الثلجية تجتاح التل الذى سبق أن شاهد عنده جبرييل أوك العربة الصفراء والفتاة الجالسة عليها منذ أيام قليلة ·

كانت السماء صافية ·· صافية بشكل غير عادى · والنجوم تسطع فى تألق فوق كوخ الراعى القائم عند حافة غابة صغيرة · فمثل هذه الأكواخ التى ترتكز على عجلات كان يتم جرها الى الحقول لايواء الرعاة أثناء الموسم حيث تقوم النعاج بولادة خرافها الصغيرة ·

وكان الناس قد بدأوا منذ فترة قصيرة ينادونه باسم « فارمر أوك » أو الفلاح أوك ، نظرا لأنه كان قد اقتصد مبلغا من النقود فتمكن من استئجار مزرعة صغيرة للأغنام تضم تل نوركومب ، كما تمكن من تسديد القسط الأول من ثمن ٢٥٠ من الأغنام • وقبل ذلك كان قد اشتغل كمدير مسئول عن احدى المزارع لفترة قصيرة • وقبل اشتغاله بهذا العمل كان مجرد راع للأغنام ، فهو منذ طفولته كان يساعد والده فى تربية الأغنام المملوكة للمزارعين الأغنياء الى أن جاء اليوم الذى مات فيه والده •

وبعد أن أصبح لجبرييل أوك أغنامه الخاصة به ، والتى لم يسدد من ثمنها سوى جزء ضئيل ، كان عليه أن يرعاها رعاية خاصة ، ويبذل المزيد من الجهد والعرق ، ولذلك فقد كان يمر بأوقات محفوفة بالمخاطر • وخرج من كوخه حاملا فانوسا وعلى مدى العشرين دقيقة التالية انشغل بالمرور حول الحظائر المسقوفة بالقش والتى كان قد صنعها من أجل نعاجه • وكان رنين أجراس الأغنام صامتا أثناء غيابه ولكنه ما أن وصل

الى هذه الحظائر حتى بدأت الأجراس تدق • واستمرت فى الدق الى أن عاد الى كوخه حاملا بين ذراعيه حملا صغيرا قد ولد لتوه • ووضع الحمل فوق كومة من القش فى مواجهة الموقد حيث كان بعض اللبن الدافىء جاهزا وبعد دقائق قليلة راح فى النوم مرة أخرى فوق كومة من الأكياس والزكائب •

ودب الدفء فى كيان الحمل الرضيع فتشجع وراح يصيح . فدخل الصياح فى أذنى جبرييل وقلبه وذهنه محملا بمعانى ملحة عاجلة • وفى لحظة واحدة انتقل من النوم العميق الى اليقظة الكاملة ، فوضع قبعته على رأسه وأخذ الحمل الرضيع بين ذراعيه وسار به تحت جنح الظلام •

وبعد أن وضع المخلوق الضئيل ملاصقا لأمه نهض واقفا وراح يتفحص السماء فى انتباه واهتمام لمحاولة معرفة الوقت ليلا من خلال مواقع النجوم •

وقال جبرييل لنفسه : الساعة الآن الواحدة بعد منتصف الليل !

وعندئذ أدرك جبرييل أن حياته بها بعض الجوانب الجميلة الساحرة • فوقف ساكنا للحظات عقب النظر الى السماء •• ثم راح ينظر الى السماء مرة أخرى باعتبارها نتاجا فنيا رائعا غاية فى الجمال الذى يجل عن الوصف •• انها لحظات السلام الكونى التى تتحقق عندما لا تظهر الأشكال البشرية والتعقيدات الانسانية ، والمتاعب والابتهاجات التى تصدر عن الآدميين •

وأدرك فى بطء تدريجى أن ذلك الشيء المضيء عند منطقة منخفضة من الأفق على حافة الغابة لم يكن نجمة وانما كان بمثابة ضوء صناعى قريب للغاية من المكان الذى يقف فيه • فسار فى اتجاه ذلك الضوء ، ثم شاهد كتلة سوداء خلف الأشجار ، فتذكر ان ذلك الموقع توجد به حظيرة تابعة لأحد الجيران • فتوقف عند الحظيرة ونظر من خلال ثقب بالباب يمكنه من رؤية ما فى داخلها • فشاهد امرأتين وبقرتين • كانت احدى المرأتين قد تجاوزت منتصف العمر أما المرأة الأخرى فكانت شابة صغيرة ورشيقة على ما يبدو ، وكانت تضع عباءة على رأسها وكتفيها مما أخفى ملامح وتعبيرات وجهها •

وقالت المرأة الكبيرة في السن نسبيا والتى تعرف عليها وأدرك أنها جارته : والآن سنعود للمنزل • وآمل أن تصبح ديسى على ما يرام الآن » •

فقالت المرأةالشابة : أتمنىلو كنا أغنياء على نحو يسمح لنا باستئجار رجل ليؤدى هذه الأعمال نيابة عنا وندفع له أجرا !

ـ وطالما نحن لسنا أغنياء ، فينبغى علينا أن نقوم بهذه الأعمال ونؤديها بأنفسنا • وينبغى عليك أن تساعدينى اذا كنت تريدين الاقامة معى • ونحن بحاجة الى المزيد من العلف المناسب من أجل ديسى لكى تقوى وتشتد !

ـ نعم يا عمتى • بمجرد أن تشرق الشمس سأذهب الى الطاحونة للحصول على بعض العلف • وسأقوم بالبحث عن قبعتى التى فقدتها ، وأعتقد ان الرياح قد ألقت بها فوق السياج والشجيرات •

وما أن سمع جبرييل هذه الملاحظات حتى ازداد

شوقه لرؤية وجهها • وأحس لبعض الوقت أنه يرغب فى ملء مكان شاغر فى قلبه وراح يصور له خياله أن تلك الفتاة تتمتع بقسط من الجمال • ومن قبيل المصادفات العجيبة أن عباءتها انحسرت عن رأسها ، فتدلت خصلات من الشعر الأسود الطويل على جاكيت أحمر اللون • وهنا أدرك على الفور أنها بطلة العربة الصفراء •• تلك الفتاة التى أخرجت مرآتها والتى أصبحت مدينة له ببنسين •

الفصل الثالث

وعندما تجلت تباشير الصباح رجع الى الغابة • وسرعان ما ظهر حصان يحمل فتاة على ظهره • وكان الحصان يتقدم فوق الممر تجاه حظيرة الأبقار • وهنا فكر جبرييل فجأة فى القبعة المفقودة وراح يبحث عنها بسرعة الى ان وجدها ملقاة فى حفرة بين الأوراق المتساقطة • فالتقطها وعاد الى كوخه ، حيث كان باستطاعته أن يرقب تقدم الفتاة الممتطية صهوة الجواد •

ووصلت الفتاة الى مكان قريب من كوخه وراحت تنظر فيما حولها • وكان على وشك أن يقدم لها القبعة

المفقودة لولا أن حدث مشهد غير متوقع جعله يتراجع ويفضل الانتظار قليلا · اذ كان المر فى ذلك المكان تعلوه بعض الأشجار ذات الأغصان المنخفضة للغاية مما يتعذر معها أن يخترقها الانسان بحصانه وهو جالس منتصب القامة · وهنا نظرت الفتاة فيما حولها كأنها تتأكد من أن أحدا لا يرقبها · وبعدئذ القت بظهرها الى الوراء على نحو رائع وبارع بحيث أصبحت ممددة تماما فوق ظهر الحصان ·· وقد استقر راسها فوق ذيل الحصان واستقرت قدماها فوق كتفيه واتجهت عيناها نحو عنان السماء ·

وبدا على حصانها أنه معتاد على مثل هذا الوضع حيث مر تحت الأغصان بدون أن تعتريه دلائل الدهشة· وبعدئذ اعتدلت الفتاة فى جلستها وواصلت المسير بحصانها فى اتجاه الطاحونة ·

وشعر جبرييل أوك بالبهجة والتسلية المزوجة بقدر ضئيل من الدهشة · وانشغل على مدى الساعة الزمنية التالية برعاية شئون نعاجه · وبعدئذ غادت

الفتاة ودخلت الى الحظيرة · وسرعان ما ترامى الى سمعه من داخل الحظيرة الأصوات المنتظمة التى تنبعث من شخص ما يقوم بحلب بقرة · فأمسك بالقبعة المفقودة بيده وراح ينتظر بجوار المر ·

وأخيرا خرجت الفتاة · وكانت الخطوط الخارجية لقوامها توحى بأن لها رقبة جميلة وكتفين جميلين·ولكن لم يحدث أن شاهد شخص ما رقبتها أو كتفيها ·

وهى لو كانت قد أرغمت على ارتداء ثياب قصيرة لكانت قد جرت وأخفت راسها فى احدى الشجيرات · ومع ذلك فهى لم تكن فتاة خجولة · كل ما هناك أنه كان من الطبيعى بالنسبة لها أن تكون أكثر تواضعا فى ملبسها من الفتيات اللاتى يعشن فى المدن · وكان من الطبيعى أيضا أنها كانت تفكر فى وجهها وقوامها بمجرد أن وقع بصرها على عينى جبرييل · ولكن الرجل هو الذى احمر وجهه بسبب الخجل والارتباك وليست الفتاة ·

قال جبرييل : لقد عثرت على قبعة !

فقالت : انها قبعتى . فقد طارت من فوق رأسى الليلة الماضية .

قال جبريل : فى الساعة الواحدة من صباح هذا اليوم ؟!

فقالت فى دهشة : نعم فى نفسى هذا الوقت . كيف عرفت ذلك ؟

– لقد كنت موجودا هنا .

– أنت فارمـر أوك اذن ؟ .. أليس كذلك ؟ لقد أردت الحصول على قبعتى فى هذا الصباح . ولقد اضطررت للذهاب بحصانى الى الطاحونة !

– نعم . فقد شاهدتك تذهبين الى الطاحونة .

فتساءلت وقد ظهر قـلق مفاجىء على وجههـا : أين ؟

فقال جبريل : هنا .. شاهدتك وأنت تخترقين الغابة وتهبطين التل .

ثم راح يحملق فى ذلك الاتجاه قبل أن يستدير لملاقاة عينيها . ولكن ذكرى تصرفها الغريب فوق ظهر الحصان قد أسبغت على وجهها اللون الوردى الغامق . وما أن نظرت اليه حتى أدار عينيه بعيدا فجأة ، كما لو كان قد ضبط متلبسا بالسرقة . وعندما نظر اليها مرة أخرى أدرك أنها ذهبت .

ومرت خمس صباحات وأمسيات . كانت الفتاة تحضر بانتظام لتحلب البقرة المتمتعة بصحة جديدة . ولكنها لم تنظر فى اتجاه جبرييل على الاطلاق . فعدم مراعاته لمشاعرها قد أساء اليها بشدة . فهى قد شعرت بالاستياء ليس بسبب انه قـد شـاهد أمورا بطريق المصادفة أو رغما عنه ، ولكن بسبب انه قد جعلها تدرك انه قد شاهد تلك الأمور . وكان من المتوقع ألا يتعرف على شخصيتها بشكل أفضل على الاطلاق لولا حدوث امر ما فى نهاية نفس الأسبوع .

فبعد ظهر أحد الأيام ازدادت برودة الجو وبدأ الثلج يتساقط . ونظرا لاقتراب الوقت الذى يتم فيه

حلب الأبقار ، فقد قام بالمراقبة الاعتيادية على حظيرة الأبقار • وأخيرا شعر بالبرودة الشديدة تسرى فى كيانه فراح يكوم المزيد من القش حول النعاج وحملانها المولودة الصغيرة • ثم دخل الكوخ ووضع مزيدا من الوقود فوق الموقد •

وتسربت الرياح الشديدة الى داخل الكوخ من أسفل الباب • ولكى يمنع هذا التسرب وضع زكيبة هنالك ثم أدار الكوخ قليلا ليتفادى التعرض للهواء • وعندئذ هبت الرياح فى داخل الكوخ من خلال أحد ثقبى التهوية الموجودين فى جانبى الكوخ •

ولقد كان يدرك دائما أنه عندما يكون الموقد مشتعلا والباب مغلقا ، فانه ينبغى فتح أحد ثقبى التهوية • فأغلق ثقبا واستدار ليفتح الثقب الآخر الموجود على الجانب الآخر غير المواجه للرياح • ولكنه غير رأيه وقرر أن يجلس لبعض الوقت تاركا كلا الثقبين مغلقين لمدة دقيقة أو دقيقتين الى أن ترتفع درجة

حرارة الكوخ قليلا • الا أن رأسه بدأت تتعرض للصداع وراح فى نوم عميق قبل أن يقوم بفتح ثقب التهوية الآخر •

ولم يدرك كم من الوقت قضاه فاقد الوعى • أثناء المراحل الأولى من عودة الوعى اليه ، بدا له أن هناك أمورا غريبه تدور من حوله • اذ كانت كلابه تعوى ورأسه تموج فى صداع رهيب وكان هناك شخصا ما يشده ويجذب جسده • وعندما فتح عينيه وجد الفتاة ذات الشفتين الجميلين والأسنان البيضاء الى جواره • بل والأكثر من ذلك ـ وهو أمر زاد من دهشته ـ أنه وجد رأسه وقد وضعت على ركبتها بينما وجهه ورقبته قد بللتها بالماء على نحو غير مريح فى حين كانت أصابعها تفك ياقة قميصه •

فتساءل فى دهشة : ماذا فى الأمر ؟

فاجابته الفتاة ضاحكة : لم يحدث شىء حتى الآن طالما أنك ما زلت على قيد الحياة • لقد كنت على وشك التعرض للموت بسبب النقص فى الهواء فى هذا

الكوخ .. ما كان ينبغي عليك أن تترك ثقبى التهوية مغلقين

وساعدته على النهوض بجسده قليلا والجلوس معتدل القامة . وراح يمسح وجهه ويهز نفسه . **ثم قال لها أخيرا :** كيف لى أن أشكرك ؟ وكيف عثرت على .. ؟

ـ لقد سمعت كلابك تعوى وتخربش فى بابك أثناء قيامى بحلب البقرة . ومن حسن الحظ أننى كنت موجودة هنا . فموسم حلب البقر قد انتهى تقريبا ، واصبح من المقرر ألا أحضر الى هنا الا بعد الأسبوع التالى . وبعدئذ جاءنى كلبك العجوز وأمسك بقميصى . فانطلقت أجرى على الفور وفتحت الباب ورأيتك . وكنت مثل رجل ميت . فألقيت باللبن عليك لكى أوقظك نظرا لأننى لم أعثر على أى ماء بالكوخ .

ـ لقد أنقذت حياتى يا آنسة ... اننى لا أعرف اسمك . وأنا أعرف اسم عمتك ولكننى لا أعرف اسمك .

ـ افضل ألا أذكر لك اسمى . فليس هناك داع لذلك حيث من المحتمل ألا يكون لك علاقة باسمى على الاطلاق !

ـ ومع ذلك فأنا أود أن أعرف اسمك !

ـ يمكنك أن تسأل عمتى . وهى ستقول لك اسمى .

ـ أنا اسمى جبرييل أوك .

ـ واسمى ليس كذلك .. وأنا أعتقد دائما أن اسمى يبدو غريبا وغير مريح !

فقال جبرييل : باستطاعتك تغيير اسمك والحصول على اسم جديد !

وعندما صاحت فى دهشة **أضاف قائلا لها :**

ـ حسنا يا آنسة . أرجو المعذرة . لقد اعتقدت انك سترحبين بالفكرة . اننى لم أكن فى يوم ما أتميز باللباقة الشديدة . ولكنى أشكرك من كل قلبى . هيا . اعطنى يدك !

وترددت وهى تمد يدها وتعطيها له · فأمسك يدها للحظات خاطفة ثم قال على الفور : أنا آسف !

– على أى شىء تأسف

– لأننى أمسكت يدك للحظات قليلة فقط ثم تركتها بسرعة !

– يمكنك أن تمسك بيدى مرة أخرى · ها هى يدى ·

فأمسك يدها لفترة أطول فى هذه المرة ، وقال أن يدها لينة للغاية · فقالت له دون أن تجلب يدها : لقد أمسكت يدى لفترة طويلة بما فيه الكفاية · وأعتقد أنك تفكر حاليا فى تقبيل يدى · ويمكنك أن تقوم بالتقبيل اذا كنت تريد ذلك !

فقال جبرييل بكل بساطة : لم أكن أفكر فى شىء من هذا القبيل · ولكنى سأفعل ذلك ·

فسحبت يدها بسرعة : لا · لن تقبل يدى

وعندئذ شعر جبرييل أنه قد وقع فى خطأ آخر لأنه أساء الى مشاعرها · واضافت فى سخرية : والآن حاول أن تعرف اسمى ··

ثم غادرت الكوخ على الفور ··

الفصل الرابع

وسرعان ما تسببت هذه الفتاة الجميلة الجذابة فى اقلاق الشاب فارمر أوك بعد ان كان مرتاح البال · اذ بدأ يرقب من خلال السياج وصولها حيث كانت تجيء بصفة منتظمة ·· وكان يترقب مثل كلب وضيع ينتظر تقديم الوجبات الغذائية له · وقام بعدة استفسارات وتحريات فاكتشف أن اسمها باتشيبا افردين ·

كما اكتشف أن البقرة ستتوقف عن ادرار اللبن فى خلال سبعة أيام تقريبا · فبدأ يشعر بالخوف والقلق من اليوم الثامن · وأخيرا جاء ذلك اليوم الثامن ولم

تعد باتشيبا تجيء الى التل بعد ذلك · وكان قد وصل حينئذ الى حالة من الاثارة والبهجة الشديدة لم تكن تخطر على باله من قبل · اذ بدأ يردد كلمة « باتشيبا » فى متعة شديدة بدلا من التصفير بفمه للتعبير عن البهجة · وفى نهاية الأمر قال لنفسه :

ــ سأتخذ منها زوجة لى والا سأتعرض للانهيار التام خلال فترة زمنية قصيرة !

وطوال هذه الفترة راح يفكر فى قلق شديد فى كيفية البحث عن سبب معقول يدعوه لزيارة كوخ مسز هارست وهى عمة باتشيبا · ولاحت له الفرصة عندما ماتت نعجة هى أم لحمل رضيع على قيد الحياة ·

وفى صباح يوم مشرق ومشمس من شهر يناير وضع الحمل الرضيع فى سلة نظيفة . واجتاز الحقول متجها الى منزل مسز هرست ، بينما كلبه العجوز جورج يسير فى وقار خلفه ·· وكان قد ارتدى أفخر ثيابه فى عناية شديدة · ووضع كل ما عنده من زيوت الشعر على شعره الجاف المجعد ، مما جعل شعره الرملى

اللون يتحول الى اللون البنى الناصع ويلتصق برأسه مثل الأعشاب البحرية المبللة الملتفة حول صخرة ملساء عقب انحسار الماء عنها ·

وعندما قطع مسافة فى حدود ٢٠٠ ياردة سمع وراحت القطة تقوس ظهرها فى غضب واستياء لدى مشاهدتها الكلب العجوز جورج · ولم يعرها الكلب أدنى اهتمام حيث كان عجوزا للغاية وعلى نحو لا يسمح له بالجرى لاهثا وراء القطط · ولكن صوتا ترامى من خلف شجيرة كانت القطة قد وصلت اليها :

ـ يا عزيزتى المسكينة ! هل أراد كلب شرير قاسى أن يقتلك يا عزيزتى المسكينة الصغيرة ؟

فرد جبرييل على الصوت قائلا : معذرة · ولكن جورج كان يسير ورائى فى هدوء وسلام !

الا أن احدا لم يظهر من بين الشجيرات ، ثم سمع صاحب الصوت يرحل مبتعدا بين الشجيرات · وكان هذا المشهد بمثابة استقبال سيىء ، فاتجه نحو الباب

وهو يشعر بشىء من الارتباك · وفتحت عمة باتشيبا الباب ·

فقال جبريل : لو سمحت أخبرى الآنسة ايفردين ان شخصا ما يسعده أن يقابلها ؟

ثم اضاف قائلا : لقد أحضرت لها حملا رضيعا · فقد اعتقدت أنها ربما تعتنى بهذا الحمل · لأن الفتيات يقمن غالبا بمثل هذه الرعاية ·· !

فقالت مسز هرست : يمكنها ان تفعل ذلك ولو أنها مجرد ضيفة أو زائرة عندى هنا ·· تفضل بالدخول · باتشيبا ستصل الى هنا حالا !

فقال جبرييل وهو يتبعها الى داخل المنزل ويجلس بجوار المدفأة : حقيقة الأمر أن الحمل الرضيع ليس هو السبب فى مجيئى الى هنا · فأنا قد جئت لكى أسألها عما اذا كانت ترغب فى الزواج يا مسز هرست ·

ـ أجئت من أجل ذلك الأمر حقا ·· ؟

ـ نعم · لأنها اذا كانت لديها الرغبة فى الزواج

فانني سأكون سعيدا للغاية اذا تزوجتها · وهل ظهر لها أى شاب آخر يريد أن يتزوجها ؟

فقالت مسز هرست : دعنى أفكر وأتذكر ··
ثم استطردت : نعم · بالطبع · ظهر لهـا كثير من الشبان فهى جميلة وجذابة للغاية وحصلت على قدر وافر من التعليـم يا فارمر أوك · ولكن هؤلاء الشباب لم يحضروا الى هنا على الاطلاق ·· ولكنها كانت ستحصل بالتأكيد على دستة من الشبان !

فقال جبرييل وهو ينظر فى أسف نحو الأرض :
ذلك أمر يؤسف له · فأنا مجرد رجل عادى وفرصتى الوحيدة تكمن فى أننى أول شخص يطلب يدها · حسنا لا داعى اذن أن انتظرها الآن يا مسز هرست ··

وعندما وصل الى بوابة الحديقة شاهد قطة بالداخل صيحة · فنظر فيما حوله فشاهد فتاة تجرى للحاق به وقد راحت تلوح له بمنديل · لقد كانت تلك الفتاة هى باتشيبا ·
وقالت : يا فارمر أوك ···

وتوقفت عن الكلام للحظات لكى تلتقط أنفاسها اللاهثة لدى الوصول اليه ·

فقال جبريل : لقد جئت توا من أجل أن اقابلك ··
ــ نعم · أعرف ذلك · ولكننى لم أكن أعرف أنك ستحضر لكى تطلب الزواج منى ، والا لكنت قد حضرت اليك من الحديقة على الفور · ولقد جريت وراءك لكى الحق بك واقول لك أن عمتى قد اخطأت فى القول عندما قالت لك ان لدى شاب بالفعل على علاقة بى · فأنا ليس لى حبيب على الاطلاق ولم يكن لدى اى حبيب فى أى وقت على الاطلاق !

فقال جبرييل : اننى لسعيد حقا أن أسمع منك ذلك !

وابتسم ابتسامته الطويلة المعهودة واحمر وجهه خجلا مع الانفعال بشعور البهجة والسعادة · **واستطرد قائلا** : لدى مزرعة صغيرة جميلة وعندما نتزوج سأتمكن من مضاعفة جهودى فى العمل !
واتخذ خطوة للأمام ومد ذراعه الا أن باتشيـبا

تجنبت يده وانزلقت خلف شجيرة شائكة وقالت من فوق كتفها وهي تنظر اليه بعينين مندهشتين : ماذا في الأمر يا فارمر آوك · انني لم أقل مطلقا انني سأتزوجك ·

فقال جبرييل في ارتباك : حسنا · تلك اذن خدعة كانت تجرين وراء أي شخص على هذا النحو وبعدئذ تقولين أنك لا تريدينه !

فقالت في لهفة وشغف : لقد كنت أهدف الى أن أقول لك ذلك ·· فأنا ليس لدى دستة من الشبان يتعقبونني كما قالت عمتي لك · فأنا أكره أن يعتقد الناس انني بمثابة شيء يمتلكه الرجال بتلك الطريقة · ولكني اذا كنت أريدك حقا لما جريت وراءك على هذا النحو · لأنني لو جريت وراءك أكون بذلك قليلة الحياء وبعيدة عن الأدب والحشمة ·

فقال جبرييل وهو يبذل محاولة أخرى : تعالى الى يا آنسة ايفردين · سأنتظر قليلا لمدة دقيقة أو دقيقتين حتى اتيح لك فرصة للتفكير في ذلك الأمر ·· هل

ستتزوجينني ؟ ·· ارجوك أن توافقي يا باتشيبا فأنا أحبك من كل قلبي !

فقالت باتشيبا وهي تنظر الى الأفق البعيد وقد راحت في تفكير عميق : اعطني بعض الوقت الكافي لكي افكر فيه ··

فقالوهو ينظر الىمؤخرة رأسها عبر الشجيرة:

ـ باستطاعتي أن أدخل السعادة الى قلبك · فلسوف يكون لديك بيانو ·· فزوجات الفلاحين أصبح لديهن بيانو في هذه الأيام · كما ستكون لديك عربة صغيرة جميلة يجرها حصان لكي تذهبي بها الى الأسواق · هذا بالاضافة الى الورود والأزهار الجميلة والأطفال الذين يدخلون عليك البهجة والسرور !

واستمر في كلامه الذي يمزج الشعر بالاتجاهات العملية ·

ـ نعم · ينبغي على أن أحب ذلك الأمر !

ـ ولسوف نعلن عن موعد زواجنا وعن مولد

أطفالنا الصغار فى الجرائد ! وكلما رفعت عينيك لأعلى وأنت بمنزلك بجوار المدفأة ستجدينني دائما هنالك بجوارك .. !

ـ انتظر .. انتظر قليلا !

وراحت فى صمت للحظات قصيرة وبعدئذ استدارت نحوه على نحو حاسم وقاطع **وقالت** : لا . لا جدوى من وراء هذا الكلام . فأنا لا أرغب فى الزواج منك . فالزواج سيكون بمثابة تحقيق انتصار عظيم بالنسبة لى من وجهة نظرى الخاصة . ولكن الزوج لا ! فكما تقول أنت سيكون دائما هنالك . وكلما نظرت أنا لأعلى سيكون هو هنالك .

وصدرت عن جبرييل تنهيدة عميقة صادقة وتوسل اليها وهو يحرك أغصان الشجيرة لكى يتمكن من الوصول اليها **قائلا** : لماذا لا توافقين على الزواج منى ؟

ـ لأننى لا أحبك !

فقال جبرييل : ولكنى أحبك . ولسوف أظل على حبى لك ورغبتى فيك طوال حياتى !

وارتعش صوته بعد أن سرى فى كيانه حزن حقيقى بل وراحت يداه الكبيرتان ترتعشان بشكل ملحوظ .

فردت عليه : لا فائدة من وراء كلامك يا مستر أوك . اننى أريد شخصا ما يروضنى ويجعلنى أليفة .. فأنا من النوع الذى يعتمد على نفسه تماما . وأنت لن تتمكن من ترويضى على الاطلاق وهذه حقيقة أدركها جيدا !

وتوقفت عن الكلام **ثم استطردت** : وأنا لا أمتلك أى شىء تقريبا ولا أية نقود فى هذا العالم . ولكنى متعلمة أكثر منك .. ولا أشعر نحوك بالحب على الاطلاق .. وهذا هو موقفى من هذا الموضوع . والآن فكر فى هذا الأمر من جهتك أنت . فأنت قد بدأت لتوك فى امتلاك مزرعة صغيرة وينبغى عليك أن تتزوج

امرأة تمتلك نقودا · امرأة تستطيع أن تشترى لك أغناما وماشية من أجل مزرعة أكبر !

فنظر اليها جبرييل فى دهشة واعجاب وقال فى صدق وأمانة وسذاجة : ان ذلك هو بالضبط ما كنت أفكر فيه !

فقالت فى غضب : اذن لماذا جئت الى ولماذا أزعجتنى كل هذا الازعاج ؟ .. واستطردت : وهل تعتقد بعد هذا الكلام الذى قلته أننى سأوافق على الزواج منك ؟ لا · لا تتكلم معى بأى كلام آخر .. فأنا لا أحبك وانه لمن الغباء أن أتزوجك بينما أنا لا أحبك !

ثم صدرت عنها ضحكة مليئة بالسخرية والاحتقار ·

وبالطبع لا يوجد أى رجل يوافق على أن يرى أحدا يسخر من حبه · لذلك قال جبرييل فى حزم : حسنا · لن أطلب منك أن تتزوجينى مرة أخرى !

الفصل الخامس

ووصلت أنباء لجبرييل تفيد أن باتشيبا قد تركت هذه المنطقة · كانت قد ذهبت الى وذربرى .. وهى قرية تقع على مسافة عشرين ميلا ، الا انه لم يستطع أن يعرف ما اذا كانت قد ذهبت الى تلك القرية للعيش فيها بصفة دائمة ، أم لمجرد زيارتها لفترة محدودة · وبعدئذ حدث شىء ما أدى الى ابتعادها أكثر وأكثر حتى أصبحت بعيدة تماما عن متناول يده ·

وذات ليلة وبعد أن عاد الى منزله معتقدا أن الأمر لم يعد يستلزم منه ان ينام فى الكوخ ، قام باستدعاء

كلبيه كالمعتاد قبل الذهاب للنوم فى فراشه · الا أنه لم يظهر سوى كلب واحد وهو جورج العجوز ولم يتمكن من العثور على الكلب الآخر ·

وكان جورج كلبا ماهرا ومن النوع الذى يمكن الاعتماد عليه · أما الكلب الصغير ابن جورج فلم يكن لديه أى ادراك سليم على الاطلاق · فعندما يرسل خلف القطيع لحثها على الاسراع فانه كان يفعل ذلك باخلاص واتقان شديد حتى أنه كان يطاردها عبر وسيكس بأسرها فى بهجة هائلة ولا يكف عن ذلك طالما لم يتم استدعاؤه · ولذلك كف جبرييل عن استدعاء الكلب الآخر وذهب لينام فى فراشه ·

وكان الليل ساكنا تماما · وقبل ظهور تباشير الصباح بقليل استيقظ جبرييل على أصوات أجراس الأغنام التى كانت تدق فى عنف وسرعة غير معهودة · فقفز من فراشه على الفور وارتدى ملابسه وانطلق مهرولا فى الحارة المليئة بالضباب وتسلق التل ·

كانت الخمسون نعجة مع حملانها الصغيرة فى

الحظيرة بالأماكن التى تركها فيها أما النعاج المئتان الأخريات والتى لم يحن بعد وقت الولادة بالنسبة لها ، فقد اختفت كلها تماما · فراح ينادى عليها بأعلى صوته بذلك النداء الذى يستخدمه رعاة الأغنام :

ــ أوفيى · أوفاى · أوفاى !!

فلم ترد على ندائه نعجة واحدة · فذهب الى السياج · فلاحظ على الفور وجود كسر فى السياج · وفى تلك الفجوة بين السياج شاهد آثار أقدام الأغنام · فتتبع آثار الأقدام حتى مشارف الغابة ولكن الأغنام لم تكن موجودة هناك · فراح ينادى مرة أخرى وارتد اليه صدى صوته عبر الوادى · ولكن لم تظهر أية أغنام · فتوغل بين الأشجار وصعد الى التل الواقع خلفها · وهنالك فوق قمة التل شاهد الخطوط الخارجية المظلمة لكلبه الصغير فى مواجهة السماء · فقد كان واقفا عند زاوية الحقل حيث يوجد هنالك سور يحمى حافة صخرة منحدرة ·

وهبطت على ذهن جبرييل الحقيقة المروعة · وبدأ يشعر بالاغماء والخوف وهو يتقدم الى احدى النقاط التى تحطم عندها السور · وهنـالك رأى مرة أخرى آثار أقدام نعاجه · ولمس الكلب بأنفه المبلل يد جبرييل كما لو كان يتوقع نوعا من المكافأة نظير خدماته ·

ونظر جبرييل عبر الصخرة · وهنالك شـاهد النعاج مستلقية وميتة عند سفح الصخرة ·· أكوام من جثث النعاج الميتة التى تضم فى أحشائها ٢٠٠ حمل على الأقل لم تتم ولادتها ·

لقد كان جبرييل انسانا يتصف بالقلب الرحيم والشفقة الشديدة · ولذلك كان أول شعور ينتابه هو الشعور بالشفقة والحزن على مصـير هذه المخلوقات اللطيفة الرقيقة ·

الا أنه تذكر بعد لحظات أن تلك المخلوقات غير مؤمن عليها · ولذلك فان كافة المدخرات التى حققها فى حرص وعناية قد ضاعت للأبد فى لحظات قليلة ·

وبذلك ضاعت كل آماله فى أن يصبح فلاحا مستقلا · ضاعت تلك الآمال للأبد ·

لقد بذل جهودا مضنية للغاية لكى يتمكن من الوصول الى تلك المرحلة من التقدم التى حققها ، حتى أنه شعر أنه لم يعد لديه الطاقة التى تعينه على بدء حياته من جديد مرة أخرى · فأحنى رأسه وغطى وجهه بيديه ·

ولكن كان من الطبيعى بالنسبة لشخصية جبرييل أن تكون العبارة الوحيدة التى نطق بها عقب هـذه الصدمة هى عبارة شكر وحمد لله :

ـ اشكرك يارب على أننى لم أتزوج ! فماذا كانت ستفعل زوجتى بين أحضـان الفقر الذى سأعانى منه بالتأكيد ابتداء من الآن ؟ ·

ورفع رأسه أخيرا ونظر الى كلبه الصغير المسكين· لا بد وأنه قد اعتقد أنه طالما قد كلف بمهمـة قيـادة الأغنام فانه كلما ساقها أكثر كلما كان ذلك أفضل

ولذلك فقد راح يطاردها عبر التل بسرعة كبيرة حتى انها تسببت فى كسر جزء من السور وانطلقت فوق الحافة · لقد نفذ الكلب المهمة المكلف بهـا باخـلاص شديد للغاية يستحق عليه رميه بالرصاص !

وكان أحد التجار قد زود جبرييل بهذه الأغنام لأنه كان يثق فى جبرييل ونشاطه وطموحه · وكان يحصل على ثمن الأغنام بالتقسيط المريح · واكتشف جبرييل انـه اذا باع كل ما لديه من ممتلكات فانـه سيتمكن من تسديد كافة ديونه تقريبا · فقام بتسديد ديونه واصبح لا يمتلك سوى الملابس التى يرتديها · أصبح رجلا حرا لا يمتلك اى شيء سوى ملابسه ·· !

الفصل السادس

كان أى رجل يرغب فى الحصول على مهنة جديدة يذهب الى السوق فى كستربردج وهى المدينة الرئيسية فى مقاطعة دورسيت فى يوم معين من شهر فبراير من كل عام · ففى ذلك اليوم كان يتجمع مئتان أو ثلاثمائة من العمال المتشبثين بالآمال فى تلك السوق ويرتدون علامة تدل على نوع الحرفة التى يمارسونها ، وذلك حتى يمكن لأصحاب العمل معرفة نوع المهنة التى يرغب فيها العامل من أول نظرة الى تلك العلامة ·

ووقف جبرييل بين هذا الحشد الغفير من العمال

باحثا عن وظيفة مدير مزرعة . كان أكثر شحوبا فى تلك الآونة وكانت تعبيرات الحزن على وجهه أعمق وأشد عن ذى قبل . الا أن متاعبه ومشغولياته كانت قد ذهبت الى غير رجعة ، وأصبح لديه شعور بالهدوء والسكينة على نحو لم يمارسه أبدا من قبل .

وما أن انقضت فترة ما بعد الظهر حتى بدأ يشعر بالارهاق والتعب والملل من الوقوف فى السوق . وأخيرا قرر أن يعرض نفسه للعمل كراعى للأغنام ، بعد أن اتضح له أنجميع الفلاحين يرغبون فى الحصول على رجال يقومون بمهمة رعى الأغنام . فذهب الى دكان للملابس واستبدل ملابسه المتازة بثياب أخرى فضفاضة ومعها عصا الرعى وهما بمثابة العلامة التى تدل على مهنة رعى الأغنام .

ولاحظه العديد من الفلاحين الا أن المحادثة كانت تتم دائما على هذا النحو :

ــ من أى بلد جئت ؟

ــ من نوركومب .

ــ وما هى المزرعة التى عملت بها فى آخر مرة ومن صاحب تلك المزرعة ؟

ــ عملت فى مزرعة خاصة بى !

وكانت هذه الاجابة الأخيرة تجعلهم يتراجعون بعيدا عنه كما لو كان مصابا بمرض معدى .

وحل المساء دون أن يتمكن جبرييل من العثور على مستخدم يقبل تشغيله عنده . الا أنه علم أن تجمعا مماثلا سيتم عقده فى اليوم التالى فى شوتسفورد الواقعة على مسافة عشرة أميال على الجانب الآخر من وذربرى .

وذربرى ! ان وذربرى هى المكان الذى ذهبت اليه باتشيبا . وكانت هذه الحقيقة بمثابة الخروج من الليل الدامس الى ضوء النهار الساطع . ربما تكون باتشيبا قد غادرت ذلك المكان منذ فترة طويلة ، الا أنه قرر أن يقضى ليلته هنالك وهو فى طريقه الى شوتسفورد .

وسار على قدميه مسافة تتراوح ما بين ثلاثة أميال

وأربعة أميال وبعدئذ حل الظلام . وعند سفح تل يالبرى عثر على عربة عند جانب الطريق بدون أية خيول ويبدو أنها قد تركت هنالك لتبقى طوال فترة الليل . وكان جبرييل قد سار على أقدامه منذ ظهور تباشير الصباح فشعر بالرغبة الشديدة فى النوم بين القش الموجود فوق العربة لأنه لو واصل المسير الى وذربرى سيضطر لدفع نفقات المبيت هناك . وتناول آخر ما لديه من قطع الخبز واللحم وأعد لنفسه مكانا يبيت فيه بين القش ثم راح فى نوم عميق على الفور .

واستيقظ فجأة فأدرك أن العربة تتحرك وترامى الى سمعه أصوات قادمة من مكان ما فى مقدمة العربة .

ـ انها جميلة وجذابة ولكن ذلك ليس سوى مظهرها الخارجى . فهؤلاء النساء الرائعات الجمال مغرورات مثل الشياطين .. ويقول الناس عنها انها مغرورة للغاية فهى فى كل ليلة تذهب فيها للنوم تنظر فى المرآة لكى تضع على رأسها طاقية النوم بطريقة سليمة !

وهى ليست متزوجة . يا لها من دنيا غريبة ! .
وهم يقولون عنها أنها تستطيع العزف على البيانو بنفس المرح الذى يعزف به أى رجل . ولكن كيف تتمكن من دفع نفقات العزف على البيانو ؟ يا مستر بيل سمالبرى ؟

ـ هذا هو ما لا أعرفه حتى الآن يا مستر جوزيف بورجراس .

وهنا مرت فكرة جامحة كالوميض فى ذهن جبرييل ربما كانا يتحدثان عن باتشيبا فيما عدا السؤال عن كيفية دفعها لنفقات العزف على البيانو . وعلى أية حال فقد أصبحوا قريبين من وذربرى ثم انزلق فى هدوء خارجا من العربة لكى لا يزعج المتحدثين . وكان على وشك مواصلة المسير عندما لاحظ وجود ضوء غير عادى على مسافة نصف ميل فوق الحقول . وبينما كان يرقب ذلك ازداد الضوء قوة .

كان هناك شىء ما يشتعل بالنيران . فتسلق فوق بوابة وسارع بالجرى عبر الحقول فى اتجاه السمنة

اللهب . كانت السنة اللهب منبعثة من كومة من القش تشتعل فى عنف وتوهج وعلى نحو يصعب فيه السيطرة على النيران . ولكن عندما هبت سحب الدخان على جانب ، تمكن جبرييل من رؤية صف طويل من أكوام القمح يقع فى مكان قريب خلف القش المشتعل . وكان الرجال يصيحون ويهرولون هنا وهناك فى فوضى وارتباك .

وهنا جرى جبرييل بسرعة للامام وتولى قيادة الناس على وجه السرعة حيث **صاح فى أكثر الناس قربا من موقع القمح قائلا** : امنعوا النيران من الوصول الى أسفل تلك الكومة من القمح !

وكانت كل كومة قمح مرفوعة عن الأرض فوق مجموعة من الدعائم الحجرية التى يتعذر على الفئران تسلقها ولكن اذا تمكنت الرياح من نقل القش المحترق الى أسفل أقرب كومة . فان جميع كومات القمح ستتعرض للتلف والاحتراق تماما .

وتنفيذا للتعليمات الصادرة منه تم القاء قماش

ضخم من أقمشة أشرعة المراكب عبر الجانب المهدد من هذه الكومة .

ثم صاح جبرييل : والآن عليكم بالوقوف هنا ومعكم جرادل الماء .. وصبوا الماء باستمرار على قماش المراكب لكى يظل مبللا باستمرار . واحضروا لى سلما !

لقد بدأ يدرك أن السنة اللهب أخذت تحرق سطح الكومة . وعندما تأخر احضار السلم راح يجاهد ويتسلق على جانب الكومة الى أن وصل الى سطحها . وكانت قطع من القش الملتهب متناثرة فى أماكن مختلفة عندما بدأ يخمد النيران مستخدما عصا الراعى التى فى يده .

وعلى الأرض أسفل جبرييل كانت مجموعات من الفلاحين تبذل قصارى جهدها للسيطرة على النيران وخلف هؤلاء الناس كانت هناك امرأة جالسة فوق حصان وامرأة أخرى واقفة الى جوارها .

وقالت المرأة الواقفة على الأرض : انه راعى أغنام

باستطاعتك أن تشاهدى عصا الأغنام الخاصة به التى تلمع أثناء قيامه بضرب النيران بهـا · كمـا أن ثوبه الفضـــفاض الخارجي بـدأ يتعرض للاحتراق ! انه يا آنسة ·· راعي أغنام شاب وسيم الشكل !

فتساءلت الفتـاة المتطية الحصـان والتى كان وجهها مختفيا وراء حجاب أسود اللون : ترى عند من من الفلاحين يعمل هذا الراعى ؟

ـ لا أعرف يا آنسة · وباقى الناس لا يعرفون أيضا · وهم يقولون أنه شخص غريب ··

ثم التفتت نحـو رجـل واقف بالقرب منهـا **وتساءلت** : هل تمت السيطرة على النيران الآن يا جان كوجان ؟

ـ نعم · أعتقد ذلك · وقد تم انقاذ القمح ·· ذلك الراعى الشجاع هو الذى أنقـذ القمح ·· ذلك الشخص الواقف فوق قمة الكومة والذى يلوح بيديه الطويلتين مثل الطاحونة الهوائية !

فقالت المرأة المتطية الحصان : انه يقوم بعمل مضنى وشاق · **واستطردت** : أتمنى أن يعمل فى مهنة رعى الأغنام معنا هنا · يا ماريان اذهبى اليـه لدى هبوطه من فوق الكومة وقولى له أن الفلاحة صـاحبة الأرض ترغب فى توجيه الشكر والامتنان له ··

فانطلقت ماريان وأبلغته الرسالة ·

فتساءل جبريل وقد شعر بالاثارة والبهجة بعد أن راودته فكرة احتمال حصوله على عمل : وأين سيدك الفلاح صاحب الأرض ؟

ـ سيد الأرض ؟ ·· انها سيدة أيها الراعى ·· ها هى موجودة هنالك فوق ظهر الحصان وقد وضعت قناعا على وجهها لأن عمتها قد انتقلت الى رحمة الله !

وكان وجه جبرييل قد تلطـخ بالهباب الأسود والدخان والأوساخ الناجمة عن النيران بحيث يصعب التعرف على ملامح وجهه وكان رداؤه الفضـفاض قد احترق فى معظم أجزائه · وكانت قطرات الماء تتساقط

من رداثه بينما كان يسير فى تواضع متجها نحو المرأة الشابة الراكبة فوق سرج الحصان . ثم قال فى تواضع وبصوت تشوبه التأتأة والتردد : هل تريدين راعيا للأغنام يا سيدتى ؟

فرفعت الحجاب من وجهها ونظرت اليه فى دهشة بالغة . لقد تقابل جبرييل مع محبوبته باتشيبا الخالية من المشاعر العاطفية مرة أخرى وجها لوجه . ولكن باتشيبا لم ترد على تساؤله فاضطر لأن يكرر تساؤله بصوت حزين يدل على أنه مدرك للموضع الأليم الذى تردى اليه : هل تريدين راعيا للأغنام يا سيدتى ؟

الفصل السابع

وانزلت باتشيبا الحجاب على وجهها مرة أخرى . وانتابتها مشاعر مختلفة : أكان عليها أن تشعر بالتسلية ازاء غرابة هذا اللقاء الذى جمع بينهما بطريق المصادفة ، أم كان عليها أن تشعر بالاضطراب بسبب حساسية اللقاء ؟!

فتمتمت قائلة وهى تضفى على وجهها طابع الوقار:

ــ نعم . أنا فى حاجة الى راع للأغنام . ولكن

فقال أحد القرويين فى هدوء : انه الرجل المناسب للقيام بهذه المهنة يا سيدتى !

ثم قال قروى آخر فى تأكيد قاطع : نعم . انه مناسب تماما لهذا العمل .. وأيد هذا القول شخص ثالث وشخص رابع .

فقالت باتشيبا : اذن قولوا له أن يتحدث فى هذا الشأن مع مدير المزرعة الخاص بى .. **وأضافت :** وينبغى عليكم جميعا أن تحصلوا على قدر من الانتعاش والشراب والطعام عقب هذا المجهود الاضافى الذى قمتم به . أيمكنكم التفضل بالمجىء الى المنزل ؟

فقال الرجل الأول : من الأفضل أن نتناول الطعام والشراب فى الحانة لأن ذلك يعطينا المزيد من الحرية ونرجو أن ترسلى لنا الطعام والشراب الى الحانة يا سيدتى !

فانطلقت باتشيبا بحصانها مخترقة الظلام .

وبدأ الرجال يتهادون فى مسيرتهم نحو القرية ،

وقد ساروا فى مجموعات تضم كل مجموعة رجلين أو ثلاثة رجال تاركين جبرييل بمفرده مع مدير المزرعة الذى كان قد وصل لتوه . وعندما تم الاتفاق على الاستعانة بجبرييل كراع للأغنام ، تساءل جبرييل عما اذا كان مدير المزرعة سيوفر له مسكنا ينام فيه .

فقال مدير المزرعة فى برود : لا . لا أستطيع ذلك . ولكنك اذا سرت وراء الرجال فى اتجاه الحانة فان واحدا منهم سيقدم لك النصيحة فى هذا الشأن . ليلة سعيدة أيها الراعى !

وانطلق جبرييل فى اتجاه القرية . وبينما كان يمر بجوار فناء الكنيسة لاحظ وجود هيكل ما واقف خلف شجرة . وعندما اقترب تبين له أنها فتاة لا ترتدى سوى الملابس التى ترتديها الفتيات فى داخل المنازل .

فقال جبرييل فى ابتهاج : مساء الخير !

فردت الفتاة : مساء الخير !

وكان صوتها جذابا بشكل غير متوقع ..

كان صوتهـــا يتميز بالنغمة العذبة المنخفضـــة التى يتميز بها صوت فتاة تمر بتجربة حب عنيف .

وتساءل جبريل : أيمكنك أن تخبرينى عما اذا كنت أسير فى الاتجاه الصحيح المؤدى الى الحانة ؟

وكان جبريل يرغب بالفعل فى أن يعرف ذلك ، ولكنه كان يرغب أيضا فى سماع المزيد من صوتهـا العذب .

ـ أنت فى الاتجاه الصحيح . فالحانة توجد عنه سفح التل .

واعترتها الحيرة والتردد وهى تنظر لأسفل نحو صرة عند قدميها . **ثم اضافت قائلة فى عصبية** : أرجوك ألا تقول أى شىء عنى عندما تصل الى القرية لا تقل أنك قد شاهدتنى هنا .. أرجوك أن تلتزم بالصمت مدة يوم واحد أو يومين .. ممكن ؟!

فقال جبريل : أعدك بذلك طالما أنك لا تريدين منى أن أتحدث عن مشاهدتى لك .

وعندما لاحظ أنها ترتعش من البرد **أضاف قائلا** : كان ينبغى عليك أن ترتدى عباءة فى مثل هذه الليلة الباردة . أنصحك أن تعودى الى منزلك !

فصاحت : لا . لا . أرجوك أن تواصـــل المسير وتتركنى وشأنى !

فقال : سأستمر فى طريقى .. **ثم اضاف فى تردد** : لو كنت فى حاجة الى نقود أرجوك أن تقبلى منى هذا المبلغ الضئيل . انه شلن واحد ، ولكنه كل ما يمكننى الاســـتغناء عنه من نقود . وأنا الراعى الجديد . ولقد وصلت الى هنا توا .

فقبلت منه الشلن فى امتنان . وتقابلت يداهما فى الظلام وأحس بنبض الدماء يضرب بقوة فى معصمها **فسألها** : ماذا فى الأمر ؟

ـ لا شيء · انصرف الآن من فضلك واكتم حبر لقائى معك !

ـ حسنا · لن أتحدث مع أحد عن لقائى بك · طابت ليلتك !

ـ طابت ليلتك وشكرا جزيلا !

وظلت الفتاة واقفة دون حراك بجوار الشجرة وسار جبرييل الى قرية وذربرى ··

الفصل الثامن

وراح جبرييل يتحسس بيده باب الحانه إلي أن عثر علي الشريط الجلدي لسقاطه الباب ، فجذبه فارتفع المقبض لأعلي في الداخل ، وفتح الباب علي مصرعيه وجاء صوت رجل عجوز مناديا :

-أدخل أيها الراعي .مرحبا بك . رغم أننا لا نعرف أسمك ؟

-أسمي جبرييل أوك ياجرانيي

-ألست حفيد جبرييل أوك العجوز الذي هو من

نوركومب ؟ لقد تعرفت عليك عندما رأيت وجهك وأنت واقف فوق كومة القمح . لقد كنت صديقا حميما لجدك والآن يجب عليك أن تتناول معنا الشراب !

ثم قال موجها كلامه لابنه جاكوب : ارفع الجرة لترى ما اذا كانت دافئة !

فانحنى جاكوب سمولبرى على الجرة ذات المقبضين الطويلين والواقفة بين رماد النيران . وغمس أصبعه فى عصير التفاح لمحاولة معرفة مدى درجة حرارته . ثم رفع الجرة وحاول فى أدب ازالة بعض الرماد العالق بها مستخدما ذيل ردائه ، نظرا لأن الراعى أوك كان شخصا غريبا وضيفا بالنسبة لهم .

واصـدر الرجل العجوز أوامره : أحضر فنجانا نظيفا من أجل الراعى !

فقال جبرييل : لا . لا داعى لذلك . فالقذارة لا تقلقنى اذا كنت أعرف نوعها ..

ثم أمسك بالجرة وشرب منها بمقدار بوصة أو اكثر من أعماقها ثم ناولها الى الرجل التالى .

واستطرد الرجل العجوز : وهاك قدرا من الخبز واللحم الذى أرسلته ربة البيت . **ثم قال** : لقد وقعت منى اللحوم على الطريق أثناء احضارى لها ولذلك فقد اختلطت بالرمال . ولكن لا تجعل أسنانك تتلاقى تماما لكى لا تشعر بالرمال فى فمك على الاطلاق !

وكانت الجرة فى تلك الآونة بين يدى جان كوجان وهو رجل أحمر الوجه ، وكان مغرما باقتسام الأشياء مع الآخرين . **وقال لرجل له شعر كثيف فوق حاجبيه** :

ـ اشرب يا هنرى فراى !

ولم يرفض هنرى العرض . **ثم قال** :

ـ هيـا يا مارك كلارك ما زال يوجـد المزيد فى البرميل .

فرد مارك فى شىء من الفكاهة : وهو كذلك . فهى طبيبى الوحيد !

ثم صاح جان فى وجه رجل خجول ومرتبك بسبب

وجود شخص غريب · وكان ذلك الرجل جالسا فى المؤخرة ثم دفع بالجرة بين يدى ذلك الرجل ·

وقال جاكوب سمولبرى : انه رجل خجول · انك يا جوزيف ليس لديك الشجاعة التى تعينك على مجرد النظر فى وجه ربة البيت الشـابة · فلماذا تخجل يا جوزيف على هذا النحو ؟

فقال جوزيف مبتسما ابتسـامة خفيفة : اننى لا أكاد أنظر اليها على الاطلاق · وعندما أحاول النظر اليها يدب الخجل والارتباك فى كيانى !

وقال جان كوجان : وهو أيضا شخص عصبى أيها الراعى أوك · فذات مرة كان عائدا للمنزل متأخرا بالليل عن طريق غابة يالبرى · فضل الطريق ، وراح يصيح بأعلى صوته : النجدة · النجدة ·· انقذونى فقد ضعت للأبد ! ·· وتصادف أن صاح طائر فوق شجرة : هو Whoo هو Whoo هو Whoo مثلما تفعل طيور الليل ·· وعندئذ ارتعد جوزيف وأجاب : أنا جوزيف بورجراس من وذربرى يا سيدى !

وهنا قال الرجل العصبى فى شجاعة فجائية :

ــ لم يحدث أن قلت أبدا : « يا سيدى » للطائر ·· أقسم لكم أننى لم أقل تلك الكلمة للطائر ·· !

ولكن جان كوجان كان قد بدأ يقص رواية أخرى وهكذا أخذ المساء ينقضى مع الأغنيات والقصص والروايات وثرثرة القرويين الى أن نهض جبرييل واقفا وانطلق مع جان كوجان الذى أخذه معه ليبيت معه فى مسكنه ·

وكان الآخرون على وشك الانصراف عندما حضر اليهم هنرى فراى الذى كان قد ذهب الى منزله فى وقت مبكر · حضر اليهم وهو يتفجر بالاثارة ·

فتساءل جوزيف فى ذعر : ماذا فى الأمر يا هنرى؟

ــ ان الأمر يتعلق بالسيد بنيوايز مدير المزرعة · فقد ضبطته الآنسة أفردين متلبسا بالسرقة · اذ شاهدته وهو ينسلل خارجا من مخزن الغلال ومعه

نصف زكيبة من القمح · فاندفعت نحوه كالقطة ·· انتم بالطبع ستعتبرون تعليقاتى أمرا سريا ؟

ـ سنحفظ السر يا هنرى · سنحفظ السر !

ـ حسنا · لقد هجمت عليه كالقطة الشرسة ·· واعترف هو بأنه قد استولى على خمس حقائب مليئة بالغلال · ولذلك فقد طردته من وظيفته · والمسألة الآن هى : من الذى سيقوم بمهمة المدير مكانه ؟

وكانت المسألة خطيرة للغاية حتى أن هنرى قد احتاج لتناول جرعة كبيرة من شراب السيدر · وقبل أن يعيد الجرة فوق المنضدة دخل « ليبان تول » الى المكان بسرعة هائلة وتساءل : هل سمعتم الأنباء التى سرت فى جميع أرجاء الأبرشية ؟

ـ أهى الأنباء التى تتعلق بالسيد بنيوايز مدير المزرعة ؟

ـ ليس ذلك فقط · انها أنباء تتعلق بالآنسة فانى روبين وهى أصغر الخادمات عند الآنسة افردين ··

فهذه الفتاة قد اختفت ولم يعثروا لها على أثر · وكانوا فى حالة انتظار لكى يغلقوا الأبواب ويذهبوا للفراش للنوم ولكنهم يخشون أن يغلقوا الأبواب فيؤدى ذلك الى احتجازها خارج المنزل · ولقد كانت هذه الخادمة فى حالة نفسية سيئة طوال الأيام القليلة الماضية حتى أنهم يظنون ان مكروها قد حدث لها ··

وجاء صـــوت خشن من بين شـفتى جـوزيف بورجراس الجافتين : « أوه · لقد احترق جسدها · احترقت حتى الموت !

فقال ليبان : لا · انها لم تحترق ولكنها غرقت !

وهنا قال بيل ابن جاكوب سمولبرى : أو ربما هى قد فعلتها مستخدمة الموسى الخاص بوالدها ·

حسنا · ان الآنسة افردين ترغب فى التحدث مع عدد منا قبل أن تذهب للنوم ، فهذه الآنسة ثائرة للغاية بسبب المتاعب التى سببها مدير المزرعة وبسبب تغيب هذه الخادمة !

وأسرعوا على طول الحارة نحو منزل المزرعة حيث ظهر امامهم رأس باتشيبا يطل من نافذة غرفة النوم ·

وتساءلت فى قلق : هل هناك أى واحد من رجالى بينكم ؟

واستطردت : فى الصباح الباكر غدا اريد أن يذهب اثنان أو ثلاثة منكم للاستفسار والبحث فى القرى المجاورة لمعرفة ما اذا كانوا قد شاهدوا خادمتى فانى روبين · وارجو منكم ان تنفذوا ذلك فى شىء من الهدوء · فليس هناك ما يدعو للذعر والقلق حتى الآن · فمن المؤكد أنها غادرت المنزل أثناء انشغالنا جميعا فى اخماد النيران ··

فتساءل جاكوب سمولبرى : هل لها حبيب من الشبان الصغار ؟

وجاء صوت ماريان متراميا من نافذة أخرى :

ـ ليس لها حبيب هنا · فحبيبها يعيش فى

كستربردج وأنا أعتقد أنه جندى · ولكنى لا أعرف اسمه · فقد احتفظت بالاسم لنفسها واعتبرته سرا لا يمكن البوح به ··

فقال بيلى : ربما أتمكن من العثور عليها اذا ذهبت الى ثكنات كستربردج ·

فقالت باتشيبا : حسنا · اذا لم تعد هى الينا فى صباح الغد اذهب الى هناك وحاول أن تعرف من هو هذا الجندى ، وحاول أن تقابله · فأنا أشعر اننى مسئولة عنها حيث انها ليس لها أصدقاء أو اقارب · وآمل ألا تكون قد تعرضت لأية متاعب · وأفعل كما أمرتك به ··

ثم أغلقت النافذة ·

ومر الرجال بالقرب من كوخ كوجان أثناء سيرهم فى طريق العودة الى منازلهم · وكانت الأضواء قد أطفئت فى ذلك المنزل ، ولكن جبرييل لم يكن نائما ·

اذ كان ذهنه مشغولا تحت جفنيه المغلقين بالصـــور الذهنية والحركة الدؤوب مثل نهر يتدفق بسرعة فوق ثلوجه . لقد كان الليل دائما هو الوقت الذى يشاهد فيه باتشيبا فى مزيد من الوضوح ومن خلال الساعات البطيئة للظلام راح خياله يرقبهـا فى رقة ورعاية .

الفصل التاسع

لقد كان بيت مزرعة وذربرى العليا بمثابة مبنى حجرى قديم فخم . وكان فى يوم ما مسكنا لأسرة غنية تمتلك جميع الأراضى فى الأبرشية . ولكن هذا البيت قد أجر فيما بعد مع الأراضى الزراعية المحيطة به ، من مالك للأرض يمت بصلة قرابة للمالك الأصلى من بعيد .
وكانت واجهة هذا البيت والأجزاء الأمامية منه ما زالت تحمل طابع الوقار والفخامة التى يتميز بها المنزل الخاص لرجل جنتلمان . ولكن الأجزاء الخلفية من هذا البيت كانت تمـوج بحياة المزرعة المليئـة بالعمل والحيوية

والحركة ، حيث كانت باتشيبا تحتفظ بأربعة خادمات لانجاز شئون المنزل • اذ كانت هناك ليدى سمولبرى وهى حفيدة صاحب الحانة ، وهى فتاة من نفس عمر باتشيبا وتعمل عندها كخادمة خصوصية ومرافقة شخصية لها • وكانت هناك مسز كوجان الطاهية كما كانت هناك ماريان • هذا بالاضافة الى فانى روبين التى لاذت بالفرار •

وفى الصباح عقب اختفاء فانى كانت باتشيبا جالسة مع « ليدى » على الأرض فى احدى حجرات الدور العلوى ، حيث كانت تقوم بفرز وتصنيف مجموعة الكتب والأوراق المتربة الخاصة بعمتها التى انتقلت الى رحمة الله • ومن خلال الباب الموارب كان باستطاعتها مشاهدة ماريان التى تقوم بتنظيف الغرفة التالية •

قالت باتشيبا : انصتى ! انتبهى !

كان هناك وقع أقدام حصان آخذ فى الاقتراب من واجهة المنزل • وبعدئذ طرقت عصا على الباب • **فقالت ليدى وهى تنظر من النافذة :** يا الهى انه جنتلمان ! ••

واستطردت : باستطاعتى رؤية الجزء العلوى من قبعته •

فقالت باتشيبا : التزمى بالهدوء !

وقرعت العصا فوق الباب مرة أخرى بصوت أعلى •

فتساءلت باتشيبا : لماذا لا تذهب مسز كوجان الى الباب ؟ • **واستطردت :** يا ماريان اذهبى أنت الى الباب ••

ولكن ماريان اعترضت على ذلك وقالت أن يديها غير نظيفتين •

ـ يا ليدى ينبغى عليك أن تذهبى لتفتحى الباب!

ولكن ليدى كانت غارقة فى التراب والرماد وأخيرا شعرت باتشيبا بالارتياح عندما سمعت مسز كوجان تفتح الباب **وترامى الى سمعها صوت عميق يقول :**

ـ هل الآنسة افردين موجودة بالبيت ؟

وبعد لحظات ظهرت مسز كوجان وقد تغطت ذراعاها بالدقيق **وقالت** : لقد كنت أقوم بخبز قدر من الخبز يا آنسة . ويوجد هنا الآن المستر بولد وود حيث يريد مقابلتك ..

ان ملابس المرأة هى جزء من شكلها العام **ولذلك قالت باتشيبا على الفور** : لا أستطيع مقابلته وانا فى هذه الحالة . فماذا عساى أن أفعل ؟

فقالت ليدى : يمكنك أن تقولى انك مغطاة بالتراب ولا تستطيعين النزول الى الدور الأول .

ـ قولى أنك لا تستطيعين مقابلته ... وهذا يكفى لانهاء الموقف .

وهبطت مسز كوجان على السلالم الى الدور الأول . وقالت نفس الاجابة التى اقترحتها ليدى **فقال الصوت العميق فى غير اهتمام** : حسنا . كنت فقط اريد أن أسأل عما اذا كنتم قد سمعتم أية أنباء عن فانى روبين !

ـ لا توجد أية أنباء يا سيدى . ولكن وليام سمولبرى ذهب الى كستربردج التى يعيش فيها حبيبها ، ويقوم الرجال الآخرون بالبحث عنها فى كل مكان .

وترامى وقع اقدام الحصان متلاشيا تدريجيا واغلق الباب .

فتساءلت باتشيبا : من يكون المستر بولدوود ؟

ـ انه الجنتلمان صاحب مزرعة وذربرى السفلى .

ـ هل هو متزوج ؟

ـ لا يا آنسة .

ـ كم يبلغ عمره ؟

ـ فى حدود أربعين عاما . وهو وسيم للغاية .. ويميل الى الوقار والرزانة . بالاضافة الى أنه غنى ..

فصاحت باتشيبا فى ضيق وتبرم : ان التراب يسبب لنا الكثير من المضايقات والمتاعب !! .. **ثم استطردت** : ولكن لماذا يستفسر هو عن فانى ؟

— لأنها لم يكن لها أى أصدقاء أثناء فترة طفولتها فتعهدها وعلمها فى المدارس ، وبعدئذ ألحقها بالعمل هنا عند عمتك · انه رجل شفوق للغاية · ولكنه شخص ميئوس منه بالنسبة للسيدات · فجميع الفتيات الشابات فى هذه المنطقة قد حاولن التودد اليه والفوز به · ولقد أنفقت ابنة فارمر ايفيز عشرين جنيها على شراء الملابس الجديدة من أجل ان تجذب انتباهه اليها ، ولكنها لم تفلح فى هذا الشأن ، واصبح حالها كأنها قد القت بعشرين جنيها من النافذة ·· هل حدث ان تقدم اليك أى شاب للزواج منك فى أى وقت من الأوقات يا آنسة ؟

وقد تجرأت على توجيه هذا التساؤل عندما انصرفت ماريان ونزلت الى الدور الأول ·

فصمتت باتشيبا قليلا ثم قالت : لقد تقدم لى رجل يطلب الزواج منى ذات مرة ·

وقفزت الى ذهنها صورة جبرييل أوك وهو واقف

خارج كوخ عمتها · **ثم أضافت** : ولكنه لم يكن الشخص المناسب لى تماما ··

— انه من الممتع أن ترفضى الزواج من رجل بينما معظمنا على استعداد للترحيب بالزواج · يخيل لى أنك قد قلت : « قبل قدمى يا سيدى لأن وجهى لا يقبله الا الأفواه الأكثر غنى » ·· وهل كنت تشعرين نحوه بالحب يا آنسة ؟

— أوه · لا · كنت فقط أرتاح اليه بعض الشيء ·

وتوقفت قليلا عن الكلام **ثم أضافت** : انتبهى · الرجال قادمون · دعيهم ينتظروننى فى المطبخ الى أن أنتهى من ارتداء ملابسى وبعدئذ أحضريهم لى فى القاعة ·

وبعد نصف ساعة جلست باتشيبا الى منضدة واستعدت لدفع الأجور للرجال · **وقالت** : قبل البدء فى تسديد مستحقاتكم أود أن أقول لكم أن مدير المزرعة قد تم طرده بسبب ارتكابه جريمة السرقة · ولقد قررت انجاز الأعمال بدون مدير للمزرعة حيث سأقوم أنا بنفسى بانجاز الأمور بدلا منه ··

وشهق جميع الرجال فى دهشة بالغة . الا أنهم تقدموا الواحد تلو الآخر للحصول على أجورهم بدون ابداء أى تعليق على غرابة هذا القرار . وعندما انتهت من تسديد مستحقاتهم أغلقت دفتر الحسابات وتساءلت عما اذا كان أى فرد منهم قد عرف معلومات وأخبارا عن فانى . ولم يكن لديهم اية أخبار عنها ولكن فى تلك اللحظة ترامى وقع أقدام فى الممر . فقــد رجع بيــل سمولبرى عائدا من كستربردج .

وقال : كنت سأصل اليكم هنا فى وقت مبكر يا آنسة لولا رداءة الطقس .

ولاحظ الجميع فجأة وجود الجليد فوق حذائه .
ولا بد أن الجليد قد بدأ يتساقط خلال الساعة الأخيرة .

فقالت باتشيبا وقد نفد صبرها : حسنا وماذا عن فانى ؟

فقال وليام : لقد هربت مع الجنود . فقد غادر

الحرس الملكى الحادى عشر لسلاح الفرسان كاستربردج فجأة . وقد مر هذا الحرس بالقرب منا هنا فى طريقهم نحو ميلشستر . وكان حبيب فانى واحدا من رجال الحرس الملكى : وهى قد ذهبت وراءه ..

ـ هل عرفت اسمه ؟

ـ لا يا آنسة . ولكنى اعتقد أن رتبته العسكرية اعلى من الجندى العادى .

فقالت باتشيبا وهى تنهض واقفة أمام المنضدة :

ـ حسنا . يستحسن ان يذهب واحد منكم لابلاغ فارمر بولدوود بهذه المعلومات .. واستأنفت : والآن تذكروا أننى سأقوم بالعمل بدلا من مدير المزرعة . وسابذل قصــارى جهدى . واذا أخلصتم فى العمل ساكافئكم على اخلاصكم . ولا أريد من أحدكم أن يلجأ للحيل المخادعة والأعمال الدنيئة مستغلا وضعى كامرأة . ولسوف استيقظ من النوم قبل أن تستيقظوا . ولسوف

اذهب الى المزرعة قبل أن تذهبوا اليها • قصارى القول اننى سأبهركم جميعا واثير دهشتكم • طابت ليلتكم •!

وانسابت باتشيبا المرتدية ثوبها الحريرى الأسود فى هيبة جليلة خارجة من الصالة بينما ليدى تسير وراءها فى فخر واعتزاز •

الفصل العاشر

وفى ساعة متأخرة من هذا المساء الثلجى ، كان هناك هيكل وحيد يتحرك بجوار ضفة النهر الصغير الذى يقع على مسافة أميال عديدة شمال وذربرى • وعلى الجانب الآخر من النهر كان يوجد الحائط العالى لبعض ثكنات الجيش •

وعندما دقت ساعة حائط مجاورة العاشرة مساء توقف الهيكل وبدا عليه كأنه يعد النوافذ فى الحائط العالى • ثم انحنى وبعدئذ طارت كرة ثلجية عبر النهر نحو النافذة الخامسة • ولكن الكرة اخطأت النافذة ••

فهذه الرمية هى فكرة نبعت من ذهن رجل ونفذتهـا امرأة · وتوالت المحاولات الواحدة تلو الأخرى · وأخيرا ضربت كتلة ثلجية النافذة ·

ولم يسمع شيء كرد على هذه الاشارة باستثناء الصوت الحزين للنهر الناجم عن ارتطام المياه بجوانبه الا أن نافذة فتحت بعد لحظات **وقال صوت ما :**

ـ من هناك ؟

فتساءل الهيكل الواقف بين الثلـج فى عصبية بالغة : أأنت الرقيب تروى ؟

فرد الصـــوت فى شيء من الريبـة والشـك : نعم · من انت أيتها الفتاة ؟

فصاح الهيكل : أوه · فرانك · ألا تعرفنى ؟ · اننى حبيبتك فانى روبين !

فصاح الصوت فى دهشة : فانى ! اننى لم أتوقع مجيئك فى هذه الليلة ·

ـ لقد قلت أننى باستطاعتى المجيء · فسألت شخصا ما عن رقم نافذتك · اغفر لى ! ولكنك سعيد برؤيتى أليس كذلك يا فرانك ؟ هل باستطاعتك .. هل يمكنك المجيء الى ؟

ـ أنا بالطبع مسرور لرؤيتك ولكن بوابات الثكنات مغلقة فى هذه الليلة · كيف جئت الى هنا قادمة من وذربرى ؟

ـ لقد قطعت جزءا من الطريق سيرا على الأقدام ثم ركبت فى عربة يجرها حصان · أوه · يا فرانك · متى سيتم ذلك الأمر ؟

ـ ماذا تقصدين ؟

ـ اقصد ذلك الأمر الذى وعدتنى به ·

ـ اننى لا اتذكر تماما ·

ـ اوه .. لا تتذكر .. لا تقل هـــذا الكلام · فكلامك هذا يؤذى مشاعرى · انت تدرك تماما معنى

كلامي .. متى سنتزوج يا فرانك ؟

ـ أوه . فهمت . حسنا .. ينبغي عليك أولا الحصول على الملابس الملائمة . وينبغي أن نبلغ الكنيسة عن رغبتنا في الزواج .

ـ نعم . أوه فرانك . أنت تعتقد انني أدفعك الى ذلك الزواج دفعا . ولكنى احبك حبا صادقا عنيفا .

وانت قلت لى مرات عديدة أنك ستتزوجنى و .. و .. وانا .. أنا ...

ـ لا تبكى الآن . من السخف أن تبكى هكذا . اذا كنت قد قلت لك هذا الكلام فأنا سوف أنفذ كلامى بالطبع !

ـ هل ستبلغ القسيس برغبتك فى الزواج غدا ؟

ـ ليس غدا . سأبلغه فى خلال أيام قليلة . فأنا ينبغى على أولا الحصول على تصريح من الضباط الذين يرأسوننى . وحقيقة الأمر أننى قد نسيت التقدم بطلب

للحصول على تصريح منهم . وحضورك على هذا النحو هو أمر فجائى للغاية وغير متوقع تماما .

ـ نعم . اننى قد أخطأت بتصرفى هذا الذى سبب لك المتاعب . ولسوف أنصرف الآن . هل يمكنك المجىء لمقابلتى غدا عند مسز تويلز بمنزلها بشارع نورث ؟ فأنا لا أود المجىء مرة أخرى الى الثكنات . ففى هذا المكان توجد الكثير من الفتيات العاهرات وهن يعتقدن أننى منحرفة مثلهن !

ـ وهو كذلك . سأجىء لك يا حبيبتى . طابت ليلتك !

ـ طابت ليلتك يا فرانك . طابت ليلتك !

واغلقت النافذة . وتحرك الهيكل مبتعدا .

وعندما ابتعد الهيكل تماما صدرت صيحة من وراء الحائط : أوه . أيها الرقيب . أوه ! أوه ! .

وتلاشت اجابة غاضبة بين انفجار من الضحكات الخافتة التى تلاشت بدورها فى أصوات هدير المياه فى مجرى النهر فى الخارج .

الفصل الحادى عشر

كانت أولى الدلائل العـــامة المترتبــة على قرار باتشيبا بأن تصبح فلاحة ، هى ظهورها فى يوم السوق التالى فى سوق الغلال فى كاستربردج • ولم يكن فى تلك السوق سوى شخصين أو ثـلاثة أشـخاص من الفلاحين المعروفين لها شخصيا ولكن الأعمال التجارية ينبغى القيام بها حتى بدون أية مقدمات أو تعارف • وسرعان ما دب فيها الشعور بالثقة بالنفس حتى أنها بدات تتكلم مع الأغراب فى جراة وشجاعة وتعرض عليهم عيناتها من القمح بالطريقة المهنية السائدة فى

كاستربردج حيث كانت تصب فى احدى يديها حبات قليلة من القمح وتعرضها عليهم للفحص •

وأولئك الذين لم تعقد معهم صفقات تجارية كانوا يسألون بعضهم البعض عمن تكون هذه الفتاة ويعلقون قائلين أن شكلها الجميل يعطى بهجة واشراقا للسوق • وكان الاهتمام العام بشخصيتها قد جعلها تشعر كأنها ملكة متوجة بين هؤلاء الناس • ولكن بين الحشد الغفير الذى يضم كافة الناس كان هناك استثناء واحد فعيون النساء لا تخطىء فى ادراك مثل هذه الأمور • ولذلك أدركت باتشيبا أن هناك شخصا ما لم يكن ضمن موكب المعجبين بها •

وتحيرت من هذه الحقيقة فى بادىء الأمر • اذ كان واضحا أنه جنتلمان فى مظهره الخارجى • حيث كان يرفع رأسه عاليا ويتسم بالهدوء والوقار فى مسلكه • كان يتسم بالوقار والرزانة بصفة خاصة • أما عمره فكان يتراوح ما بين ٣٥ عاما و ٥٠ عامــا وأدركت

باتشيبا بغريزتها أن هذا الشخص الذى لا يتأثر بسحر الجمال كان غير متزوج .

وما أن انتهت من مهامها فى السوق حتى اندفعت نحو ليدى التى كانت تقف فى انتظارها بجوار العربة الصفراء الصغيرة التى يجرها الحصان والتى جاءتا فيها الى السوق . وبعد أن انطلقتا بالعربة **قالت باتشيبا :** لقدكنت امر بلحظات عصيبة يا ليدى . ولكن الأمر انتهى الآن . ولن أهتم بذلك الأمر مرة أخرى لأنهم سوف يعتادون على رؤيتى هنالك . ففى هذا لصباح كنت أشعر بنفس المتاعب التى تمر بها امرأة متزوجة : كانت العيون تحملق فى فى كل مكان . ولكن كان هناك رجل واحد عاقل لم يشأ أن يضيع الوقت فى الحلقة فى !

وقالت ذلك الكلام على هذا النحو لكى لا تعتقد ليدى أنها تضايقت من ذلك الموقف . **واستطردت :** انه رجل وسيم للغاية . طويل القامة . يبلغ من العمر

حوالى اربعين عاما على ما اعتقد . هل تعرفين من يكون هذا الرجل ؟

ولم تستطع ليدى التعرف على شخصية ذلك الرجل . **فتساءلت باتشيبا فى شىء من الاحباط : ألا** يمكن أن تخمنى على الاطلاق ؟

– ليس لدى أدنى فكرة عنه . **وعلى كل حال** فالأمر لا يعنيك كثيرا طالما أنه لم يلتفت اليك ولم يهتم بك مثل الآخرين !

وكانت مشاعر باتشيبا مختلفة بعض الشىء عن مشاعر ليدى ازاء ذلك الأمر . واستمرتا فى قطع المسافات بالعربة فى صمت . وبعدئذ لحقت بهما عربة منخفضة منطلقة وراء حصان رائع ، وتخطتهما بسرعة **فصاحت باتشيبا :** ها هو الرجل الذى حدثتك عنه !

فنظرت ليدى وقالت : ذلك الرجل ! .. انه المزارع بولدوود .. وهو الرجل الذى لم تقابليه عندما جاء الى بيتك منذ أيام قليلة .

فقالت باتشيبا فى تمتمة : أوه . المزارع بولدوود!

وراحت ترقبه وهو ينطلق بعربته المسرعة . وهو لم يلتفت برأسه على الاطلاق . وانما مر كأنما هى ومفاتنها وجمالها لا وجود لهم على الاطلاق .

وقالت باتشيبا معلقة : انه رجل ممتع ومشوق . هل تعتقدين ذلك ؟

فوافقتها ليدى على رأيها ..

الفصل الثانى عشر

وبعد ظهر يوم من أيام الآحاد ، وفى داخل منزل المزرعة كانت باتشيبا قد طلبت من ليدى أن تجيىء اليها وتجلس معها . وكان الجو كئيبا فى وقت الشتاء قبل اشعال الشموع ، الا أن كلام ليدى انساب كالفيضان واضفى البهجة على المكان .

وتساءلت ليدى : هل لاحظت مسلك المستر بولدوود فى الكنيسة فى صباح هذا اليوم يا آنسة ؟ . انه لم يلتفت اليك ولو مرة واحدة طوال تأدية الصلوات بأكملها ..

فتساءلت سيدتها وقد ظهر عليها شيء من الضيق والتبرم : ولماذا ينبغى عليه أن ينظر الى ؟ .. فأنا لم أطلب منه أن يفعل ذلك !

ـ أوه . لا . ولكن كل شخص آخر فى الكنيسة كان يرقبك من وقت لآخر . ولذلك كان من الغريب الا ينظر هو اليك على الاطلاق . وعلى اية حال فهو جنتلمان غنى وليس هناك ما يدعوه لأن يهتم .

والتزمت باتشيبا الصمت للحظات قليلة . **وبعدئذ صاحت قائلة** : أوه يا ليدى .. غدا ١٤ فبراير يوافق عيد القديس فالنتين .. ولقد كدت أن أنسى كارت المعايدة الذى اشتريته !

فتساءلت ليدى : كارت معايدة ؟ .. لمن سترسلين كارت المعايدة يا آنسة ؟ .. هل سترسلينه للمزارع بولدوود ؟

ـ لا .. لقد اشتريت كارت المعايدة من أجل تيدى كوجان الصغير . فقد وعدته بتقديم شيء

جميل له . ولذلك فأنا أفضل ارسال هذا الكارت باسمه الآن . ترى ماذا أكتب له فى هذا الكارت ؟

فقالت ليدى على الفور : يمكن أن تكتبى شيئا من هذا القبيل :

الورد أحمر اللون
وجميل وممتع أيضا
ورائحته لذيذة وحلوة
وأنت مثل الورد تماما

فقالت باتشيبا : نعم . ان تلك الكلمات تتلاءم تماما مع طفل جميل الوجه مثل تيدى .

وكتبت تلك الأبيات على الكارت ووضعته فى مظروف ، وكانت على وشك أن تكتب عنوان تيدى على المظروف عندما قالت **ليدى** :

ـ ان ارسال هذا الكارت الى مستر بولدوود الغبى سيثير الكثير من المزاح والهزل وسيؤدى الى بث الدهشة والتعجب فى كيانه !

وتوقفت باتشيبا عن الكتابة وراحت تفكر فى هذا الكلام الذى قالته ليدى · انها لم تكن متضايقة للغاية بسبب عدم اهتمامه بها · الا أن عدم اكتراثه بها قد طعنها فى كبريائها ، لأنه أكثر الناس احتراما فى الأبرشية ، ومع ذلك فلا يحاول النظر اليها على الاطلاق ، حتى أن فتاة مثل ليدى قد لاحظت ذلك وأخذت تتطرق الى هذا الموضوع ·

وقالت باتشيبا : لا · لن أفعل ذلك · فهو لن يرى أى مزاح فى هذا التصرف !

فاصرت ليدى على رأيها قائلة : من المؤكد انه سينتابه القلق وينشغل باله تماما ·

فقالت سيدتها : هل سيحدث له ذلك ؟ اننى لا أريد ارسال الكارت الى تيدى بصفة خاصة · فهو فى بعض الأحيان يميل الى الشقاوة بعض الشىء ·· **ثم اضافت فى غير مبالاة** : هيا بنا نلقى بقطعة من العملة المعدنية لأعلى لكى نحسم الأمر مثلما يفعل الرجال ·· [ملك أو كتابة] الملك لصالح بولدوود والكتابة

لصالح تيدى ·· ولكن لا ·· لا ينبغى أن نلقى بالنقود ونلهو بها فى أيام الآحاد فهذا يؤدى الى تشجيع الشياطين ؟

ـ اذن القى بهذا الكتاب · ولن يكون هناك أى خطأ فى ذلك يا آنسة ·

ـ حسنا · المفتوح لصالح بولدوود والمغلق لصالح تيدى · لا · لا· من المحتمل أكثر أن يسقط الكتاب مفتوحا · فلنجعل المفتوح لصالح تيدى والمغلق لصالح بولدوود ·

وطار الكتاب فى الهواء وهبط على الأرض مغلقا· وهنا أمسكت باتشيبا بالقلم ـ دون أن يبدو عليها أى اهتمام على الاطلاق ـ وكتبت عنوان بولدوود على المظروف ·

ثم قالت : والآن أشعلى شمعة يا ليدى · ترى : أى الأختام نستخدم ؟ فهنا يوجد ختم رأس الأسد · لا · ما هذا ؟ ختم الحمامتين ؟ لا · ينبغى أن يكون الختم شيئا غير عادى · أليس كذلك يا ليدى ؟ هل هنا يوجد

ختم مكتوب عليه رسالة . وربما تكون الكتابة المنقوشة عليه غريبة وهزلية ولكنى لا أستطيع قراءة الكلمات المعكوسة الاتجاه . هيا بنا نجرب هذا الختم .

وقامت باذابة بعض الشمع مستخدمة لهيب الشمعة واغلقت المظروف بالشمع المذاب . وبعدئذ ضغطت بالختم على الشمع الساخن وأمعنت النظر عن كثب لكى تعرف الكلمات المكتوبة .

ثم صاحت وهى تلقى بخطابها وتضحك بصوت مرتفع :

ـ هذا عظيم للغاية . فالكلام المكتوب يمكنه أن يطيح بوقار أى قسيس ويقلب كيانه !

ونظرت ليدى الى كلمات الختم وقرأت : تزوجنى !

وهكذا تمت الاجراءات التنفيذية بطريقة طائشة ، وبدون مراعاة لمشاعر الآخرين وبدون شعور بالمسئولية . وتم القاء الخطاب فى صندوق البريد فى نفس اليوم لكى يتم تسليمه فى مزرعة ودربرى السفلى فى صباح اليوم التالى .

الفصل الثالث عشر

وفى مساء يوم القديس فالنتين ، جلس المزارع بولدوود لتناول طعام العشاء كالمعتاد بجوار جذع شجرة مشتعل بالنيران الناصعة . وعلى الرف الموجود فوق المدفأة ، كان يوجد خطاب باتشيبا . وأثناء تناوله الطعام راح يتمعن فى الكلمات المطبوعة مع الختم فى ولع واعجاب : تزوجنى !

ومنذ أن وصل ذلك الخطاب فى صباح اليوم وهو يشعر أن توازن حياته بدأ ينقلب تدريجيا وفى بطء ، بعد أن رسخ فى ذهنه أن هناك امرأة ما ممتازة تحبه وتعشقه كثيرا مما دفعها الى ارسال الخطاب له .

وعندما ذهب للنوم فى فراشه وضع الخطاب عنـد أحد أركان المرآة الموجودة فى غرفة نومه · فهذه هى أول مرة فى حياته يحدث فيها مثل هذا الأمر · وكان واثقا أن هذا الخطاب قد أرسل من أجل تحقيق هـدف جاد وهام ، ولذلك لم ينظر الى الخطاب على أنه من قبيل التصرفات غير الأخلاقية أو السيئة السلوك ·

لقد طافت يد امرأة ما فى حنان فوق الورقة التى حملت اسمه · ومن المؤكد أن ذهنها فى تلك الأثناء قد انصب عليه · ولا بد أنه قـد انطبـع فى خيالهـا وتصوراتها ·· لماذا راحت تتخيله فى ذهنها ؟ ·· ترى : ما هو شكلها ؟

وعندما استغرق فى النوم بدأت تتجسـد له فى احلامه · وعندما استيقظ كان هناك الخطاب الذى يبرهن له على صدق أحلامه · **وفجأة راح يسائل نفسه : هل** هناك كلام آخر يمكن أن يكون مكتوبا فى ورقة فى داخل المظروف ؟ فقفز ناهضا من سريره تحت ضـوء القمر وهز المظروف وراح يبحث فى داخله · ولكنه لم

يجد أى شىء فى داخله · فشعر بالقلق وتضايق من نفسه بسبب تلك الاثارة العصبية التى اجتاحته ثم عاد الى سريره ·

وعندما اشرق الصباح ارتدى ملابسه وخرج من المنزل وراح ينظر فيما حوله · كانت الشمس الساطعة باللون الأحمر ترتفع فى بطء فوق السفـح الجليـدى للتل · وكان سطح الثلج قد تجمد أثناء الليل · وكانت انطباعات أقدام بعض الطيور القليلة التى وقفت على هذا السطح عندما كان الثلج لينا قد تجمدت وأصبحت واضحة المعـالم · وقطعت عليه أفكـاره عندما سمع أصوات عجلات خفيفة · لقد كانت تلك الأصوات منبعثة من عربة البريد التى دخلت الى الحارة فى بطء · وكان سائق تلك العربة يمد يده الممسكة بخطاب · فأمسك بولدوود بالخطاب وفتحه على الفور متوقعا انه خطاب آخر جاءه من المعجبة المجهولة ·

فقال ساعى البريد : لا أعتقد أن هذا الخطـاب مرسل لك يا سيدى · انه مرسل لراعى الغنم عندك رغم أنه لا يوجد عليه الاسم ·

وعندئذ نظر بولدوود الى العنوان المكتوب على المظروف فقرأ « الى الراعى الجديد للأغنام / مزرعة وذربرى / بالقرب من كاستربرج » **فصاح** : أبوه ! يا لها من غلطة ! الخطاب ليس لى وليس موجها لراعى الغنم التابع لى . انه موجه للرجل الذى يعمل عند الآنسة افردين والذى يسمى جبرييل أوك . يحسن بك أن تأخذ الخطاب لتعطيه له وتقول له أننى فتحته بطريق الخطأ . لا . أنتظر » وكان هناك هيكل رجل يعبر خط السماء عند الأفق وقد سار وراءه كلب . وقال بولدرود : ها هو الرجل جبرييل أوك يسير فوق التل سأذهب اليه بنفسى لأعطيه خطابه ! .

ولم يكن الأمر بالنسبة لبولدوود هو مجرد تسليم خطاب لرجل آخر . وانما كان سانحة له للقيام ببعض التحريات الخاصة . وسار فى لهفة وراء الراعى الذى كان يهبط نازلا من فوق التل متجها نحو الحانة .

الفصل الرابع عشر

كان الجد الأكبر سمولبرى موجودا فى مطبخه حيث كان يتناول طعام الافطار . وكانت البطاطس يتم شواؤها بين الرماد الساخن حول النيران ، مع اناء ضخم مليىء بالقهوة الآخذة فى الغليان والمكونة فى معظمها من الخبز المحترق .

وكانت هناك أصوات منبعثة من الخارج ، وبعدئذ ظهر هنرى فرأى عند باب الحانة وتقدم نحو النيران وهو ينفض الثلج عن حذائه أثناء السير ، وتبعه ماتيو مون وجوزيف بورجراس وآخرون ، وقد أمسكوا

فوانيس بأيديهم ، حيث كانوا مشغـولين فى تاديـة أعمالهم منذ الساعة الرابعة من صباح ذلك اليوم ·

واستفسر صاحب الحانة العجوز : وكيف يمكنها انجاز الأعمال بدون أن يكون لديها مدير مزرعة ؟

فهز هنرى رأسه وابتسم ابتســـامته المعهودة المريرة ·

وقال : انها ستندم على ذلك · ولـــكنها لا ترغب فى الاصغاء لأى نصيحة · والفخر والغرور هما السبب الرئيسى فى المتاعب التى تواجهها ! لقد كنت أنا نفسى استحق العمل فى وظيفة مدير المزرعة !

وعلى مدى العشــر دقائق التاليــة ، انخرطوا جميعا فى مناقشة شخصية باتشيبا والتغييرات التى أحدثتها منذ أن أصبحت هى المسئولة عن مزرعة وذربرى العليا خلال فترة قصيرة · وبعدئذ ترامى الى سمعهم وقع اقدام ثابتة وعالية بالخارج ، ثم فتح الباب فتحة تصل الى حوالى ست بوصات **ونادى شخص ما عند الجــانب**

الآخر : أيها الجيران ·· هل لديكم مكان من أجل عدد قليل من الحملان المولودة حديثا ؟

ـ بالتأكيد أيها الراعى !

وهنا فتح الباب على مصراعيه وظهر جبرييل أوك وقد وضع على كتفيه أربعة حملان صغيرة · ودخل وراءه كلبه العجوز جوزج فى وقار وهو الكلب الذى أحضره معه من نوركومب ·

ونادى على مساعده الشاب الصغير : احضر باقى الحملان يا كين ·· ثم عد بسرعة الى التعاج · ولسوف أجيء اليك بسرعة ·

وهنا دخل الى الفنـــدق كين بول ، وهو شاب بشوش مشرق الوجـــه لـــه فم مثل الثقب المستدير الصغير · ووضع على الأرض حملين صغيرين ثم خرج مرة أخرى · وبعدئذ قام جبرييل بتدثير جميع الحملان فى بعض القش ، ووضعهم جميعا حول النيران · **ثم قال :** لا يوجد لدينا فى هذه المزرعة كوخ خاص بالحملان

المولودة ولقد كان لدى دائما فى نور كومب كوخ خاص بالحملان .. **واستطرد :** فانا اذا لم أحضر اليـكم هنا يا مستر سمولبرى لكنت قد وقعت فى ورطة وأصبحت لا أعرف ماذا أفعل فى هذا الجو الشديد البرودة . كيف حالك اليوم ؟

ـ اوه .. لست مريضا ولا مكتئبا أيها الراعى . ولكنى لا أشعر بقوة الشباب . والأمـور ليست كما كانت عليه . ولقد كان الرجال يتحدثون منذ لحظات عن الأنشطة الغريبة التى تقوم بها صاحبة المزرعة !

فتساءل جبريل : وماذا كنتم تقولون عنها ؟ »

والتفت بحده نحو الرجـال الآخرين بينما الدماء الحمراء تقفز الى وجهه .

فقال مارك كارك : هؤلاء الرجال المتوسطو العمر كانوا يوجهون الانتقادات اليها بسبب شعورها بالافتخار والغرور . ولكنى أقول : أعطوها فرصة وباركوا وجهها الجذاب الجميل .. كم أود أن أقبل تلك الشفتين !

ثم صدرت عن شفتيه هو ذلك الصـوت الغريب المعروف تماما .

فقال جبريل فى حدة : يا مارك . اننى لن أسمح بحدوث مثل هذا الكلام الخليع عن الآنسة افردين ! هل تسمعنى ؟ .. **ثم أضاف ملتفتا فى وحشية نحـو جوزيف بورجراس :** وانت بالذات . اعتقد أنك كنت تتحدث عنها كلاما فى غير صالحها ؟

فقال جوزيف وهو يرتعد رعبا : لا . لا .. لم أتحدث بكلمه واحدة ضدها . كل ما قلته عنها : انـه لشيء بهيج . أنها متماسكة ولم تتدهور . أما ماتيـو فقد قال ــ

فقال ماتيو فى قلق : أنا ؟ أنتم تعرفون أننى لا أستطيع أن أوذى دودة صغيرة !

فقال جبريل : حسنا . هنـاك شخص ما بينكم حاول الاضرار بها .. واسمعونى أيها الجيران ..

ثم ضرب جبريل بيده الثقيلـة الكبيرة على

المنضدة فى عنف رغم انه من أكثر الناس الذين يتميزون بالهدوء والرزانة والذوق ·

واستطرد قائلا : من يبادر منكم بالاساءة الى سيدتنا ساوقفه عند حده بالقوة ·· والا فلن يكون اسمى هو جبرييل أوك !

فصاح مارك كلارك : اسمع ! ذلك بالضبط هو ما كان ينبغى على أن أقوله ·

ورغم ان الكلب جورج لم يكن يفهم الكثير من اللغة الانجليزية الا انه نظر لاعلى وصدرت عن حلقة زمجرة وحشية منخفضة ·

فقال هنرى فراى محاولا تهدئة الموقف : والآن هدىء من روعك أيها الراعى ·· واجلس !

وفى نفس اللحظة دخل المزارع بولدوود الى الفندق وراح يومىء برأسه محييا كل فرد من الحاضرين بوقاره المعهود · **ثم قال :** آه · يا اوك · لقد اعتقدت أنك موجود هنا · فقد قابلت عربة البريد منذ عشرة دقائق

وأعطانى ساعى البريد خطابا ففتحته بدون ان أقرأ العنوان المكتوب عليه · وأعتقد أن هذا الخطاب مرسل لك · وارجو أن تغفر لى هذه الغلطة لو سمحت !

فقال جبرييل على الفور : بالطبع يا مستر بولدوود

ثم راح يقرأ الخطاب :

صديقى العزيز : اننى لا اعرف اسمك · ولكننى أريد أن أشكرك على عطفك على فى تلك الليلة التى غادرت فيها وذربرى · لقد انتهى كل شىء على ما يرام · ولسوف أتزوج من الشاب الذى ظل حبيبى لفترة من الوقت ·· وهو الرقيب « تروى » الذى ينتمى للحرس الملكى الفرسانى الحادى عشر · وهو رجل يتميز بالشرف ووضعه الاجتماعى ممتاز ، بل انه فى الحقيقة رجل نبيل تجرى فى عروقه دماء نبيلة · ونحن نهدف الى عمل مفاجأة فى وذربرى عندما نعود اليها فى القريب العاجل كزوج وزوجة · مع خالص شكرى وتمنياتى ·

فاى روبين

وقال جبريل : هل قرأت ذلك الخطاب يا مستر بولدوود ؟ اذا لم تكن قرأته فيستحسن أن تقرأه . فأنت مهتم بشئون فانى روبين .

فقرأ بولدوود الرسالة وظهر الحزن على وجهه **وقال :** مسكينة فانى ! فالزواج الذى تتحدث عنه فى تأكيد وثقة لن يحدث فى أى وقت من الأوقات .. ويبدو من الخطاب أنها لم تذكر عنوانها .

فتساءل جبريل : « ما هى طبيعة هذا الرجل الذى يسمى العريف تروى ؟ »

وقال بولدوود : انه شخص لا يمكن الاعتماد عليه . رغم أنه شخص ماهر وذكى . لقد كانت أمه مدرسة تدرس اللغة الفرنسية . ويبدو أنها كونت علاقة حب سرية مع المرحوم اللورد سفيرن . ثم تزوجت طبيبا فقيرا ثم أنجبت ولدا بعد ذلك . وعندما كبر هذا الولد عمل كاتبا عند محامى فى كاستر برودج . وربما كان من الأفضل له عدم

الانضمام الى الجيش . وأنا أشك فى أن فانى ستفاجئنا بالزواج من هذا الشاب على النحو الوارد فى خطابها يالها من فتاة حمقاء !

وفتح الباب على مصراعيه مرة أخرى ودخل كين الصغير لاهث الأنفاس تماما . لقد ولدت نعجتان أخريان فأرسلوه لاستدعاء الراعى على الفور . فهب جبريل واقفا وطاردا من ذهنه تلك الأفكار عن فانى المسكينة . والتقط هو وكين الحملان الستة المستلقية بالقرب من النيران ، واختفيا أثناء اتجاههما نحو حقل الحملان .

فسار بولدوود وراءهما لمسافة قصيرة ثم تردد واستدار عائدا ولكنه غير رأيه وسار وراءهما مرة أخرى . وبعد لحظات قليلة عرض على جبريل الخطاب الذى أرسلته باتشيبا .

وقال مدعيا عدم الاهتمام وقلة الاكتراث : لقد كنت على وشك أن أسألك يا أوك عما اذا كنت تعرف خط من كتب هذه العبارة ؟

فحملق جبرييل فى الكلام المكتوب وقال على الفور : انه خط الآنسة افردين !

ثم دبت الدماء فى وجهه عندما لاحت له فكرة جديدة : ينبغى الا يكون هناك توقيع على الخطاب الفور : « انه خط الآنسة افردين ! » ·

ولاحظ بولد وود ان الاضطراب قد دب فى كيان جبرييل فقال : ان التساؤل فى محله تماما · فانت كما تعرف تكون هناك استفسارات خاصة بشأن مثل تلك البطاقات التى ترد فى المناسبات والتى تجىء بدون أسماء · فهنا يكمن المزاح !

واذا كانت كلمة · « مزاح » معادلة لكلمة « ألم » لما كان بولدوود قد نطقها بوجه أكثر تعاسة مما حدث !

الفصل الخامس عشر

وفى صباح أحد أيام الأسبوع ، نهضت مجموعة من المتعبدين ـ معظمهم من النساء ـ من السجود على ركباتهم فى ختام الصلاة بكنيسة جميع القديسين · وكانوا على وشك مغادرة الكنيسة عندما جذب انتباههم وقع أقدام سريعة تدخل الى الكنيسة فنظروا فيما حولهم · فوجدوا شابا فارسا مرتديا الزى الرسمى الأحمر ، وقد ظهرت على ذراعه الأشرطة التى تدل على رتبته بدرجة رقيب · وسار هذا الشاب الى وسط الكنيسة محاولا عدم اظهار الارتباك والخجل الذى يعتمل فى داخله ·

وعندما وصل الى الطرف الشرقى من الكنيسة ظهر القسيس . فهمس فى أذن الجندى ، وبعدئذ أعطى اشارة لكاتبه الذى همس بدوره فى اذن امرأة كبيرة فى السن . ثم وقف الأشخاص الأربعة منتظرين شيئا ما .

وصاحت بعض النســـاء وقد ظهر عليهن قدر أكبر من البهجة والسرور : انه ســـوف يتزوج . فلننتظر !

وجلسن ينتظرن . وبعد لحظات دقت ساعة الحائط بالكنيسة معلنة الوقت ... كانت الساعة الحادية عشر والنصف .

وهمس المصلون : أين المرأة ؟

ووقف الرقيب الشاب ساكنا وصامتـــا دون حراك مثل الحوائط الموجودة فيما حوله . وازداد الصمت عمقا مع مرور الثوانى والدقائق ، ولم يظهر أى شخص ولم يتحرك أى فرد . ودقت ساعة الحائط

بالكنيسة معلنة الساعة الثانية عشرة الا ربع مما جعل بعض المشاهدين بالكنيسة يقفون فى دهشة .

وهمس صوت مرة أخرى : ترى : أين المرأة ؟
وظهر حينئذ وقع خفيف لبعض الأقدام وبعض الكحة المفتعلة . وهى علامات تدل على العصبية والقلق . ثم ترامت ضـحكة ، ولكن الجندى لم يتحرك فى مكانه ، وانما ظل واقفا هنالك وقد أمسك قبعته فى يده . وتخلصت النســاء من التوتر العصبى وبدأت الضحكات تظهر من وقت لآخر . وبعدئذ ساد الصمت المطبق التـام حيث راح الجميع ينظـرون ما سيسفر عنه الموقف .

وأخيرا دقت ساعة الكنيسة معلنة الساعة الثانية عشرة باثنتى عشرة ضربة ثقيلة . وهنا اختفى الكاهن وكاتبه ولم يكن الرقيب قد اســتدار بوجهه بعد . وظلت كل امرأة بالكنيسة منتظرة لكى تشاهد وجهه ويبدو أنه كان مدركا لذلك . فعندما استدار بالفعل.

سار فى جرأة وشجاعة مخترقا الكنيسة وقد زم شفتيه تماما .

وبينما كان يعبر الساحة الخارجية للكنيسة تقابل مع امرأة شابة واقفة فى وسط الساحة . كان وجهها يفيض بالقلق الشديد . ولكن ما أن وقع بصرها على وجهه حتى ظهرت تعبيرات الرعب على وجهها .

فقال وهو يحاول السيطرة على الغضب فى داخله وينظر الى وجهها نظرات مباشرة : حسنا .. !!

ـ أوه . يا فرانك . لقد وقعت فى غلطة . فقد اعتقدت أن تلك الكنيسة الأخرى هى كنيسة جميع القديسين . ووقفت عند باب تلك الكنيسة فى تمام الساعة الحادية عشرة والنصف مثلما قلت . وظللت منتظرة حتى الساعة الثانية عشرة الا الربع وبعدئذ اكتشفت أننى موجودة فى كنيسة جميع الأرواح .. ولكنى لم أنزعج كثيرا حيث اعتقدت أنه باستطاعتنا أن نتزوج غدا بدلا من اليوم !

ـ أنت غبية وسخيفة لأنك خدعتنى على ذلك النحو ! .. لا تتكلمى أى كلمة أخرى !

فتساءلت فى لهجة خاوية وقد شحب وجهها :

ـ هل يمكن أن تتم مراسم الزواج غدا يا فرانك؟

فأطلق ضحكة قاسية بصوت أجش **قائلا :**

غدا ! اننى أوعدك بألا أمر بهذه التجربة مرة أخرى لفترة طويلة !

فقالت بصوت مرتعش : ولكن على أية حال لم تكن هذه الغلطة شنيعة للغاية . والآن يا حبيبى فرانك متى سيتم عقد الزواج ؟

فقال فى مرارة : آه متى ؟ الله وحده هو الذى يعرف ..

ثم ابتعد عنها وشق طريقه خارجا بسرعة .

الفصل السادس عشر

وفى يوم السبت عقب عيد القديس فالنتين ، كان بولدوود فى سوق الغلال فى كاستر بردج كالمعتاد عندما دخلت الانسانة التى تعكر عليه صفو أحلامه . فتشجع ونظر اليها لأول مرة فى حياته . فشاهد من منظور جانبى شعرها الأسود ، ومنعطفات وجهها السليمة ، ورءوش عينيها وشكل أذنيها . وبعدئذ شاهد قوامها ورداءها بل وشاهد حذاءها . واعتقد أنها جذابة وجميلة . **ولكنه سأل نفسه فى تعجب :** ترى هل هو على حق فى رأيه ؟ اذ بدا له أنه من

المستحيل أن يوجد مثل هذا الجمال لفترة طويلة بدون أن يخلق قلاقل بين الرجال تفوق القلاقل التى أثارتها باتشيبا .

وكان من رأيه أن الطبيعة أو الفن لايمكنهما أن يضيفا جمالا الى جمالها . وبدأ قلبه يدق فى مزيد من السرعة . **فسأل جارا بصوت منخفض : هل تعتبر** الآنسة افردين جميلة المنظر ؟

ـ أوه . بالطبع انها جميلة للغاية حقا !

ان الرجل لا يرتاب مطلقا فى الآراء المؤيدة المتعلقة بجمال المرأة التى يحبها ، ومجرد كلمة يقولها طفل تكون لها نفس أهمية آراء الفنان . وشعر بولدوود بالارتياح والرضا آنئذ . فهذه المرأة الساحرة الجمال قد قالت له بطريقة غير مباشرة « تزوجنى ! » .. ولماذا أقدمت هى على هذا التصرف الغريب ؟ لقد كانت فى تلك اللحظة تتعامل فى برود وهدوء مع فلاح شاب مرح فدبت الغيرة الشديدة فى دماء بولدوود وأراد أن يدفع نفسه

للدخول فى الحديث معهما . ولايمكن ان يتم ذلك الا اذا طلب منها أن تريه عينة من قمحها وهو لا يجرؤ على تنفيذ ذلك فهو اذا سال كل هذا الجمال عن البيع أو الشراء سيكون قد تسبب فى اهانته والتقليل من شأنه .

وطوال ذلك الوقت كانت باتشيبا تدرك أنها قد تمكنت من اختراق وقاره أخيرا . اذ كانت تدرك أن عينيه تتبعانها فى كل مكان . وكان ذلك فى حد ذاته انتصارا عظيما لها . ولكنه كان سيصبح انتصارا أعظم ما لم تلجأ الى الخداع . وكانت تشعر بالأسف العميق لأنها قد تسببت بتصرفاتها غير الحكيمة فى تحطيم السلام والهدوء الذى كان يعيش فيه رجل تكن له كل الاحترام والتقدير . وكانت على وشك أن تطلب منه الصفح والغفران عندما تقابلا فى المرة التالية ولكنها خشيت أن يتسبب ذلك فى زيادة الطين بلة .

ولذلك لم تقل شيئا . ومر شهران قبل أن

يحاول بولدوود التحدث اليها . كان ذلك فى مساء يوم من أيام الربيع الدافئة ، وفى الاسطبلات الواقعة خلف منزله كان هناك ستة من الخيول تستمتع بالدفء وتتناول طعامها من العلف والأعشاب . وكان بولدوود نفسه يسير جيئة وذهابا خلفها مثلما كان يفعل عادة فى المساء الى أن تنهمر أشعة القمر داخلة الى الاسطبلات من خلال النوافذ المليئة بالتراب، او الى أن يغلف الظلام كل شىء . ووصل آنئذ الى باب الاسطبل وراح ينظر للخارج عبر الحقول ، فالى ما وراء الحقل الأول كان يوجد سور ، وعلى الجانب الآخر من السور كانت توجد الأراضى والحقول الخاصة بباتشيبا . وكانت أغنامها تستمتع بتناول العشب الصغير قبل تخصيص الحقل من أجل الأعشاب الجافة . وشاهد بين الأغنام ثلاثة هياكل : باتشيبا وجبرييل أوك وكين بول الصغير . كان ثلاثتهم منهمكين مع نعجة فقدت حملها ، حيث كانوا يحاولون اقناعها بتبنى حمل صغير آخر . اذ كان جبرييل قد قام بسلخ الحمل الميت . وكان يحاول

وضع ذلك الجلد على جسـد الحمل الحى ، وكانت باتشيبا ممسكة بباب حظيرة سياجية صغيرة مفتوحا لكى يبقى فيها الحمل الصغير والنعجة الى أن تتقبل النعجة الحمل الصغير ٠

وما أن شـاهد بولدوود باتشيبا حتى اتقدت عيناه وتغير وجهه ٠ اذ لم يعد بامكانه اخفاء مشاعره خلف الوقار والرزانة وهبط عليه احساس مخيف بأن مشاعره قد كشفت عن السر ٠ وأخيرا اتخذ قرارا : ينبغى أن يذهب اليها ويسألها فى شجاعة عن كارت عيد القديس ٠

وعندما اقترب نظرت باتشـيبا اليه ٠ وأدرك جبرييل أن وجهها قد احمـر بسبب الخجـل أو الاضطراب ، وتذكـر الظروف الذى عرضه بولدوود عليه ٠ واستبعد أن تستمر فى تأدية هذه اللعبـة النسائية التى بدأت بكارت عيد القديسين ٠ ولكن ما أن أدرك بولدوود أنهم قد انتبهوا الى اقترابه منهم ، حتى دب الخجل فى كيانه فجأة فاستدار عائدا من حيث جـاء ٠٠

الفصل السابع عشر

وفى نهاية شهر مايو ، قرر أخيرا أنه لم يعد بامكانه الانتظار لفترة أطول فى ارتياب وشـكوك ٠ فذهب الى منزلها فقيل له أنها ذهبت الى المغسل الذى يتم فيه غسل الأغنام ٠ فذهب الى هناك ووجدها ٠

وكانت بركة غسل الأغنام بمثابة حوض دائرى مبنى بالطوب ومليىء بالمياه الصافية النقية القـادمة من مجرى مائى يخترقها متجهـا نحو النهر ٠ كان الراعى أوك ومساعدوه متجمعين هنالك وقد تبللت ملابسهم تماما ٠ وكانت باتشـيبا واقفة بجـوار

حصانها وقد ارتدت أفضل ثياب الخيالة لديها . وكانت الأغنام المستسلمة تدفع الى البركة من الجزء الأسفل بواسطة جان جوجان وماتيو مون ، وبعدئذ يدفعها جبرييل لأسفل مستخدما عصا خاصة أثناء عومها . وكانت تدفع للخروج من الماء عند الطرف العلوى للبركة وضد التيار ، لكى تنساب منها جميع الأوساخ . وكان يساعدها على الحروج من الماء كيت وجوزيف بورجتراس اللذان كانا مبللين أكثر من الآخرين .

وتقدم بولدوود نحو باتشيبا والقى عليها تحية الصباح فى هدوء شديد حتى أنها اعتقدت أنه قد جاء لمشاهدة عملية غسل الأغنام لا أكثر ولا أقل . فانسلت باتشيبا بعيدا وهى تقود حصانها فى هدوء بجوار النهر . وسرعان ما سمعت وقع أقدام فوق العشب خلفها وأدركت أن مشاعر الحب بدأت تطوقها من جميع الجوانب مثل العطور العذبة الذكية الرائحة . وبدلا من الالتفات وراءها أو التوقف فى

انتظاره فانها استمرت فى مواصلة السير ببطء بين الأعشاب الطويلة بجوار شاطىء النهر .

ولكن بولدوود قد بدا عليه التصميم فى هذه المرة لأنه راح يستحث الخطى الى أن أصبحا عند منعطف النهر . فهنا كان باستطاعتهما سماع أصوات الناس القائمين على غسل الأغنام وبدون أن يراهما أحد .

قال المزارع : يا آنسة افردين !

فارتعدت والتفتت وقالت : صباح الخير !

كان صوته مختلفا للغاية عما كانت تتوقع ، اذ كان منخفضا وهادئا ومليئا بالمعانى العميقة .

وقال فى بساطة ووقار : ان مشاعرى الفياضة نحوك تحول دون ترتيب أفكارى . وحياتى قد تغيرت تماما منذ أن رأيتك فى وضوح يا آنسة افردين . وأنا قد جئت اليك الآن لأعرض عليك الزواج .. !

ولم ترد عليه باتشيبا **فاستمر بولدوود فى**

التكلم : عمرى الآن ٤١ عاما . وطوال سنوات حياتى لم افكر فى الزواج . ولكننا جميعا نتغير .. والتغير الذى حدث لى قد جاء مع مشاهدتى لك . وانا أريدك زوجة لى بغض النظر عن جميع الظروف والأحوال !

فردت فى غير ثبات : يا مستر بولدوود رغم أننى أحترمك كل الاحترام .. الا أننى أشعر أننى لا أستطيع تماما قبول العرض الذى تقدمت به !

ويبدو أن هذا الرفض الجليل للغرض الجليل الذى تقدم به قد اطلق فيضا من المشاعر كان محتجزا ومختزنا فى داخــل وجدانه **حيث قال بصــوت منخفض** : ان حياتى بدونك أصبحت لا معنى لها . باستطاعتك أن تحبينى قولى لى ذلك يا آنســة افردين . أقولهــا مرات ومرات عديدة ، واذا كان باستطاعتك أن تحبينى ، قولى لى ذلك يــا آنســة افــردين . ولكن اذا لم يــكن بمقــدورك أن تحبينى فلا ترفضى طلبى . فأنا أريدك . وأنا لم أكن لأتكلم

فى هذا الموضوع لو لم يكن لدى الأمل المشرق الذى سرت وراءه !

فقالت فى همس : تلك البطـــاقة .. بطـاقة عيــد القديس فالنتين .. مرة أخـــرى ! أوه ! تلك البطاقة .. **ثم استطردت بصوت مسموع** : يا مستر بولدوود أنت رجل مبجل للغاية بالنسبة لى وعلى نحو يجعلنى غير ملائمة لك . وأنا أدرك أنه ما كان ينبغى لى مطلقا أن أرسل لك تلك البطـاقة . ســامحنى يا سيدى .. فقد تصرفت بغباء وهو تصرف لا تقدم عليه أية امرأة تحترم نفســها . فاذا غفرت لى هذا الطيش الذى وقعت فيــه فانى أعــدك الا أقدم على لاطلاق على ... ...

ـ لا . لا . لا تذكرى كلمة الطيش . دعينى أعتقد أن القدر هو الذى دفعك الى ارسال تلك البطاقة الى وأخشى أن يكون عمرى كبيرا بالنسبة لعمرك . ولكنى سأعتنى بك أكثر من أى شــاب صغير . ولســوف تحصلين على اى شيء تريدينــه ، ولسوف

تعيشين في راحة تامة وهناء تام . ان الله وحده هو الذى يعرف كم أنت عزيزة على !

كان قلب باتشيبا قليل الخبرة فماج بالتعاطف مع هذا الرجل الذى كانت لديه كل هذه المشاعر العميقة ، والذى كان يتحدث بكل هذه البساطة .

فصاحت : لا تقل هذا .. لا تقل ! فانا لا أتحمل هذا ! وأخشى أن ينتبه الرجال الى وجودنا هنا سويا يا مستر بولدوود . هل يمكنك أن تؤجل الكلام فى هذا الموضوع الآن ؟ فأنا لا أستطيع التفكير جيدا وبوضوح الآن . أوه كم أنا مزعجة للغاية لأننى قد جعلتك تقاسى وتعانى على هذا النحو !!

ــ اذن قولى لى الآن أنك لاترفضين على الاطلاق . واسمحى لى أن أحضر لزيارتك مرة أخرى غدا .

ــ لا . من فضلك . اعطنى بعض الوقت . اذ ينبغى على أن أفكر جيدا فى هذا الأمر !

فقال فى حماس واهتمام وامتنان : نعم .

نعم . ساعطيك اية فترة زمنية تريدينها . امنى الأن أشعر بمزيد من السعادة . ولسوف أنتظر .

وبعد أن غادرت باتشيبا المكان ظل هو واقفا هنالك محملقا فى الأرض ، مثل رجل لا يعرف طبيعة المكان الذى يوجد فيه . وبعدئذ هبط عليه الادراك والتحقق مثل آلام الجرح التى لم يشعر بها الانسان أثناء الانخراط فى القتال المحتدم . فغادر المكان هو الآخر .

الفصل الثامن عشر

ونظرا لان باتشيبا لم تكن واقعة فى حبه على الاطلاق ، فقد راحت تدرس فى هدوء العرض المقدم منه للزواج بها . كانت جميع وجهات النظر تشير الى أنه ينبغي عليهـا من حيث هى فتـاة تشعر بوطأة الوحدة القاسية والعزلة العاطفية أن تتزوج هذا الرجل الجاد الغنى المحترم . وهى اذا كانت قد شعرت بأية رغبة في الزواج فليس هناك أي مبرر يدعوها لرفض الزواج منـه . الا أن وضعها من حيث هى مسئولة تمـاما عن مزرعة ومنزل ، كان أمرا غير طبيعي وغير عادي وكان أمرا جديدا! ولم يبـدأ بعد في الخبو

والتلاشي التدريجي . ومع ذلك فهي كانت تشعر بعقدة الذنب لأنها هي التى أرسلت البطاقة ، وبالتالى فانها ينبغي عليها أن تتقبل النتائج المترتبة على ذلك بكل أمانة وصدق .

وفي اليوم التالى وجدت جبرييل اوك فى أعماق حديقتها حيث كان يشحذ ويسن مقصه الكبير ، بينما كان كين بول يدير مقبض حجر المسن . فراحت ترقبهما للحظات في صمت **ثم قالت** : يا كين اذهب الى الحقل القريب من النهر وأمسك بحصانى ولسوف أقوم أنا بادارة المقبض نيابة عنك . أريد أن أتحدث معك يا جبرييل !

وبعد أن أدارت المقبض حوالى ٢٤ أو ٣٦ مرة توقفت **وقالت** : أود أن أسألك عما اذا كان الرجال قد علقوا أية تعليقات بشأن ذهابي خلف العشب الطويل مع المستر بولدوود بالأمس .

وعندما أومأ جبرييل برأسه **استطردت قائلة** : ماذا قالوا ؟

— لقد قالوا عنك أنك ستتزوجين على ما يبدو قبل نهاية السنة !

— أريد منك أن تقول لهم اننى لا أوافق على سماع أى تعليق آخر سخيف منهم · من المؤكد أنهم قد سمعوا الحوار الذى دار بينى وبينه ·

فقال جبرييل وهو ينظر اليها فى دهشة :

حسنا يا باتشيبا !

فقالت فى وقار : الآنسة افردين من فضلك !

— أقصد هذا : اذا كان المستر بولدوود قد تحدث معك بالفعل عن الزواج فاننى سأكذب عليهم واقول لهم أنه لم يتقدم للزواج منك ، اذا كان هذا يدخل السرور على نفسك · فأنا أحاول دائما أن أجعلك مسرورة وسعيدة للغاية وقد عانيت من أجل ذلك كثيرا !

فنظرت باتشيبا اليه فى دهشة وتمتمت فى غير ثقة : كل ما أريده منك أن تقول لهم أنه ليس صحيحا أننى سأتزوج منه !

— باستطاعتى ان أقول لهم ذلك يا آنسة افردين اذا كنت ترغبين فى ذلك · وباستطاعتى أيضا ان أقول لك رأيى الشخصى فى التصرف الذى أقدمت عليه ·

— لا أريد أن أسمع منك رأيك الشخصى !

وبعد لحظات شعرت بالأسف والأسى على هذا الرد الجاف · فقد كان جبرييل هو الشخص الوحيد فى الأبرشية الذى تحترم رأيه · ورغم أنها كانت تعرف مدى حساسية الموضوع بالنسبة له ، ومدى ما يسببه له هذا الموضوع من آلام . الا أنها سألته فى هدوء : حسنا ، ما هو رأيك فى تصرفاتى ؟

— تصرفاتك غير سليمة ولا تتلاءم مع امرأة عميقة التفكير ولطيفة وجميلة وجذابة مثلك !

وفى لحظة تصاعدت مشاعر الغضب فى داخل

باتشيبا وتدفقت الدماء الحمراء الى وجهها . **وردت عليه** : ورأيى فيك أنك سيىء للغاية ، حتى أننى كنت أتوقع أن تصدر عنك هذه الاهانات عندما يمتدحنى أى جنتلمان .

كان من الواضح أن باتشيبا قد فقدت صوابها واتزانها ولكن جبرييل التزم بضبط النفس ولم يرد عليها . **وبعدئذ انفجرت باتشيبا بصوت مرتفع** : أود أن أسألك : أين هى أخطائى ؟ هل أخطائى تكمن فى أننى غير متزوجة منك ؟

فقال جبرييل فى هدوء : لا بالتأكيد . فأنا قد توقفت على التفكير فى ذلك منذ فترة بعيدة !

فتساءلت : ولا ترغب فى ذلك الأمر أيضا ؟!

وكانت تتوقع منه أن يرد عليها بالرفض الشديد . ومهما كانت مشاعر جبرييل الحقيقية فانه **رد عليها فى برود مستخدما نفس كلماتها** : ولا أرغب فى ذلك الأمر أيضا !

كانت باتشيبا على استعداد لتقبل تأنيب جبرييل لو أنه ادعى أنه يشعر نحوها بالحب . فى نفس الوقت . كان هذا هو ما توقعته وما لم تحصل عليه . ولم يكن قد انتهى من كلامه . **اذا استطرد بصوت مرتفع** : ومن رأيى أن اللوم الشديد يقع عليك لأنك قد قمت بالحيل الخادعة ، ونصبت الشراك لرجل مثل المستر بولدوود لمجرد التسلية والعبث . فليس من قبيل الشرف أن تثيرى الحب فى رجل لاتشعرين نحوه بالحب !

فحملقت باتشيبا . وصاحت : لا أسمح لأى رجل أن ينتقد حياتى الخاصة . من فضلك غادر هذه المزرعة فى نهاية هذا الأسبوع !

فقال جبرييل فى هدوء : حسنا للغاية !

لقد كان مرتبطا بها من خلال خيط جميل لا يرغب فى قطعه وليس من خلال قيود حديدية يتعذر عليه فكها وتحطيمها . **فأضاف قائلا** : من الأفضل لى أن أذهب الآن فورا لو سمحت !

فقالت والشرر يتطاير من عينيها أثناء نظرها الى عينيه ولكن دون أن تتلاقى عيناها مع عينيه : اذهب الآن على الفور بحق السماء !

واضافت : ولا تدعنى ارى وجهك مرة أخرى

ـ حسنا يا آنسة افردين . لن تشاهدينى مرة أخرى !

ثم اخذ المقص وسار مبتعدا عنها فى وقار وهدوء ..

الفصل التاسع عشر

وبعد مرور أربعة وعشرين ساعة على ترك جبرييل أوك للقطيع التابع لباتشيبا ، حتى جاء بعض الرجال بعد ظهر أحد أيام الآحاد يهرولون فى اضطراب نحو المنزل . فتساءلت باتشيبا وهى تقابلهم عند الباب لدى خروجها للذهاب للكنيسة : ماذا فى الأمر ؟ .

فقال هنرى فراى : لقد كسرت مجموعة من أغنامك السور .

وقال ليبان تول : ودخلت فى حقل مزروع بنبات ضار يشبه البرسيم ..

وقال هنرى : فتورمت أجسادها !

وقال ليبان : ولسوف تموت كلها اذا لم يتم اخراجها من هذا الحقل وعلاجها !

فصاحت سيدتهم وهى تسقط من يدها قفازها وكتاب الصلاة الخاص بها ، وتهرول نحو الحقل المزروع بهذا النبات الضار : كفى أيها الأغبياء !

واستطردت : ولماذا جئتم الى ؟ كان ينبغى بدلا من ذلك أن تبادروا الى اخراج الأغنام من هذا الحقل !

وهرولوا وراءها وتشجعوا بوجودها معهم وتناثروا بين الأغنام ، حيث كان معظمها مستلقيا على الأرض فى هبوط وتخاذل . وتم رفع تلك الأغنام التى لا تقوى على المسير ، وحملها الى خارج الحقل . أما الباقى فقد سيق للخروج ، ولكنها ما أن دخلت فى نطاق الحقل التالى حتى راحت تتدحرج على

ظهرها ، وتتنفس بأنفاس قصيرة وسريعة بعد أن امتلأت أمعاؤها ومعداتها بالغازات وانتفخ بطنها .

فصاحت باتشيبا فى يأس : أوه . ماذا سأفعل ؟ .

فقال ليبان : هناك طريقة واحدة لانقاذها . ينبغى عمل فتحة فى أجنابها بآلة معينة . ولكن هذه الفتحة يجب أن تتم فى المكان الصحيح . فاذا تمت الفتحة بانحراف قليل الى اليمين أو الى اليسار ولو لبوصة واحدة تموت الأغنام !

وقال جوزيف بورجراس : والرجل الوحيد فى هذه المنطقة الذى يستطيع القيام بهذا العمل بنجاح هو

فقالت باتشيبا : من هو ؟ فلنحضره فورا !

ـ « انه جبرييل أوك » .

فصاحت : كيف تجرؤ على ذكر اسم هذا الرجل أمامى !

واستطردت : حسنا . لا تقفوا هنا . اذهبوا واحضروا شخصا ما لمعالجة الأغنام على الفور !

وما أن خرجوا من البوابة **حتى اضافت قائلة لنفسها** : لن أطلب منه الحضور مطلقا !

وبعدئذ قامت احدى النعاج بتقليص عضلاتها على نحو مريع ، ثم مددت نفسها وقفزت لأعلى فى الهواء . ثم هبطت فى ثقل فوق الأرض ساكنة دون حراك . فذهبت باتشيبا اليها . وأدركت أنها قد ماتت .

فصاحت باتشيبا مرة أخرى : أوه . ماذا عساى أن أفعل ؟ لن أرسل فى طلب جبرييل أوك على الاطلاق !

ولكنها كانت تدرك بينها وبين نفسها أنه يتبغى عليها أن تستدعيه . فسارت وراء رجالها عبر البوابة ونادت على ليبان **وسألته** : أين يقيم أوك ؟

ـ عبر الوادى . عند كوخ نيست .

ـ امتط حصانى واذهب الى هناك . وقل له أنه ينبغى عليه العودة الينا فى الحال .. وأننى أقول له ذلك !

فأسرع ليبان وامتطى ظهر الحصان بدون أن يضع سرجا على ظهره وانطلق فى اتجاه التل ومنه الى الكوبرى ومنه الى التل المقابل ومنه الى الكوخ الأبيض الصغير . وراحت باتشيبا ترقب الموقف . وكانت تامل أن يكون لديه الادراك السليم والذكاء الكافى بحيث يعطى الحصان لجبرييل ويعود هو سيرا على الأقدام . ولكنها عندما شاهدت الحصان يعود اليها أدركت أن الراكب فوقه هو ليبان .

وتساءلت عندما توقف عندها وهبط نازلا من فوق ظهر الحصان : حسنا ؟ ماذا فعلت ؟ »

فقال ليبان : انه يقول لن يحضر اليك الا اذا طلبت منه ذلك فى أدب مثل أية امرأة تطلب مثل هذا الأمر ، وتتوسل لكى يقدم لها معروفا !

فصاحت : ماذا ! هل أنا أعامل على هذا النحو ؟ هل أتوسل الى رجل كان يستجديني من قبل ؟

وقفزت نعجة أخرى في الهواء وسقطت على الأرض ميتة . وبدا على الرجال الوقار الحزين . وبدوا كما لو كانوا يريدون الرد على تساؤلها ولكنهم لم يتكلموا .

واستدارت باتشيبا وقد امتلأت عيناها بالدموع . ولم تستطع اخفاء المتاعب التي وقعت فيها ، فانفجرت في البكاء بصوت مرتفع من خلال غرورها وحدة طبعها .

فقال وليام سمولبرى في تعاطف : لا داعي للبكاء يا آنسة . لماذا لاتطلبين منه الحضور بلهجة تتسم بالمزيد من الذوق ؟ .. فأنا متأكد أنه سيحضر اذا فعلت ذلك !

فتوقفت باتشيبا عن البكاء وجففت دموعها . **وتمتمت** : أوه . انها لقسوة خسيسة ! »

ولكنها أسرعت عائدة الى منزلها وكتبت رسالة مؤدبة وأضافت في نهاية الرسالة عبارة « لا تتركني هكذا يا جبرييل فأنا الآن لا حول لي ولا قوة ومغلوبة على أمري وعاجزة عن عمل أي شيء ! » .. وكان وجهها ممتقعا باللون الأحمر وهي تناول الرسالة للبيان .

ومرت ربع ساعة من القلق الشديد قبل أن يحضر جبرييل أوك . **وقالت** : أوه يا جبرييل . كيف تعاملني على هذا النحو في غير شفقة ؟ .. ولكن نظرة الشكر والامتنان في عينيها كانت تبيح بكلام آخر . فتمتم بكلام مضطرب وأسرع متجاوزا المكان الذي تقف فيه وأدركت هي أن هناك عبارة محددة في رسالتها وأن هذه العبارة هي التي دفعته للمجيء اليها .

وما أن وصل جبرييل الى الحقل حتى خلع معطفه والقاه بعيدا بسرعة وأخرج من جيبه آلة صغيرة : عبارة عن أنبوبة صغيرة في داخلها ابرة صغيرة . وراح يستخدم تلك الآلة مثل طبيب ماهر ،

حيث كان يحدث ثقبا فى معدة كل نعجة ليتيح الفرصة للغازات لكى تتسرب .

وعندما انتهى من مهمته حضرت اليـــه ونظرت بتمعن فى وجهه وقالت وهى تبتسم ابتســامة عذبة وبدون أن تغلق شفتيها ، لأن ابتسامة أخرى كانت آتية فى الطريق : يا جبرييل هل ستعود الى وتقيم معى هنا ؟

فقال جبرييل : سأفعل ذلك بكل تأكيد !

فابتسمت فى وجهه مرة أخرى .

الفصل العشرون

كان اليوم الأول من شهر يونيو هو أكثر الأيام ازدحاما بالعمل بالنسبة لجميع أيام الراعى الأخرى فى خلال الســـنة .. فهو اليـــوم الذى يتم فيه جز أغنامه وجمع محصول الصوف . وكان الجز يتم فى الحظيرة . وهى مبنى حجرى ضخم شيد منذ أربعـــة قرون بتصميم يشبه شكل الكنيسة القديمة ، وهو مبنى متين وقوى مثل القلعة . وكانت أبوابها المقوسة الهائلة ، مفتوحة على مصراعيها للسماح لدخول ضوء الشمس اللازم لعمليات جز الصوف .

وكانت باتشيبا ترقب فى حرص وعناية رجالها لتتأكد من أنهم يقومون بالجز بطريقة سليمة لا يشوبها أى اهمال · وما أن يتم الانتهاء من جز النعجة أو الخروف ، حتى تقف هنالك فى عصبية وخجل بسبب فقدانها للصوف الذى كان يكسو جسدها · وهنا يبادر كين بول بالجرى نحوها ليطبع على جلدها المجزوز حرفين هما : « ب · ا » ·

وبينما كان جبرييل منهمكا فى جز الأغنام جاءت اليه باتشيبا ووقفت الى جواره وهنأته على سرعته واتقانه فى انجاز هذا العمل ·

الا أن القدر كان له بالمرصاد · كان مصرا على افساد جو السعادة الذى يكتنفه · اذ حضر بولدوود وبدأ يتكلم مع باتشيبا بصوت منخفض · وخرجا سويا الى ضوء الشمس الساطعة ، وهما مازالا يتجاذبان أطراف الحديث · هل كان الكلام منصبا على أغنامها ؟ بالطبع لا · اذ كانت عيناها تنظران فى تواضع نحو الأرض وكانت الدماء تتدافع الى وجهها ·

وبعدئذ دخلت الى منزلها ثم خرجت بعد ربع ساعة وقد ارتدت الملابس الجديدة التى ترتديها عند امتطاء حصانها · وأحضر لها روب كوجان الصغير حصانها ورفعها بولدوود برفق لكى تجلس فوق السرج ·

وقالت لجبرييل : اننى ذاهبة لمشاهدة قطيع الأغنام الجديدة الخاصة بالمستر بولدرود · خذ مكانى فى الحظيرة ، واشرف على الرجال لكى يؤدوا عملهم على خير وجه ·

ثم انطلقت هى وبولدوود كل على حصانه ·

وقال أحد الأشخاص الذين يقومون بعملية جز الصوف : ذلك معناه الزواج ! ·· فوافق جان كوجان على هذا القول · كما أيد ذلك ليبان تول ، **وأضاف هنرى فراى قائلا** : ربما قد حان الوقت الملائم لزواجهما ·· وأعتقد أنه قد قام بتقبيلها عندما كانا متوارين خلف العشب الطويل عند مغسل الأغنام منذ أيام !

فقال جبرييل : يالها من كذبة !

وتساءل هنرى فى رفق : أوه • جبرييل أوك • كيف لك أن تعرف ؟

فقال جبرييل فى عدم ارتياح : لانها قصت على كل ما حدث !

فقال هنرى فى شيء من الضيق : لك الحق فى ان تصدقها • ولكنى أستطيع أن استشف الأمور • فأى شخص يمكنه أن يكون ماهرا بحيث يصبح مديرا لمزرعة ولكن ذهنى له أعماقه الخاصة • هل تفهموننى يا جيرانى ؟ اننى قد استغفل راعى غنم معينا ولكن لا • أوه ـ لا !

ولكن ماريان العجوز تدخل ليلطف الجو : هل سمع أحدكم عن رجل له ساق واحدة ليحل محل فى العمل ؟ •• فانا لا أتوقع أن أحصل على ساق ممتازة فى أى وقت من أوقات حياتى !

وبينما كان جان كوجان يرد باجابة ملائمة

استمر جبرييل فى أعمال جز الصوف فى صمت • ولاحت بذهنه أفكار مزعجة • فأشاعت القلق والازعاج فى كيانه الهادىء • لقد صدرت عن باتشيبا بعض الدلائل التى تشير الى أنها قد جعلته مديرا للمزرعة • وهى وظيفة كانت المزرعة فى أشد الحاجة اليها • الا أن فهمه لها فى تلك الآونة كان مشوبا بالتعتيم والضباب وعدم اليقين • فهى من المؤكد كانت تخدعه عندما تظاهرت أمامه بأنها ليس لديها أدنى اهتمام بالمستر بولدوود • وبدأ يشعر مثل باقى زملائه الذين يقومون بجز الصوف أن ذلك اليوم سيشهد الموافقة على بولدوود كزوج لباتشيبا مستقبلا •

وقال كين بول مبعدا أفكار جبرييل الى اتجاه آخر جديد : نحن العمال سنستمتع بوليمة عظيمة فى هذه الليلة • فلقد شاهدتهم يعدون الأطعمة فى المطبخ هذا الصباح يا مستر أوك !

فقال جوزيف بورجراس وهو يبلل شفتيه بلسانه لدى رسوخ هذه الفكرة فى ذهنه : حسنا ••

سوف أستمتع بهذه الوليمة • فالطعام والشراب من الأمور الممتعة للانسان بل ويعطيان الشجاعة للجبناء، ويبثان الثقة فى الجسد وبدونهما نهلك ونموت !

وتم اعداد مائدة لطعام العشاء طويلة وممتدة فوق المروج الخضراء بجوار المنزل • وكان أحد طرفيها يخترق النافذة الى داخل غرفة الطعام حتى تتمكن باتشيبا من الجلوس على رأس المائدة بدون الاختلاط مع الرجال • وكانت هى فى ذلك المساء مضطربة على نحو غير عادى • اذ بدا عليها كأنها تنتظر شخصا ما وقد تم ترك المقعد الموجود عند الطرف الآخر شاغرا بناء على طلبها الى أن بدأ وضع الطعام أمام الناس •

وبعدئذ طلبت من جبرييل الجلوس فى ذلك المقعد ، ففعل ذلك فى اهتمام • ولكن بولدوود وصل فى تلك اللحظة واعتذر لباتشيبا عن تأخره فى الحضور •

فقالت باتشيبا : لو سمحت يا جبرييل انتقل من مكانك لكى يجلس فيه المستر بولدوود !

فترك جبرييل ذلك المقعد فى صمت واتجه الى مقعده الأصلى •

كان المستر بولدوود مرتديا معطفا جديدا وصديريا جديدا تشع منهما البهجة وذلك بعكس ملابسه المعتادة الوقورة التى تميل الى اللون الرمادى• كما كان مبتهجا فى تصرفاته وكلامه • وكذلك كانت باتشيبا مبتهجة بعد أن حضر بالفعل الى الوليمة •

وبعد أن انتهى الناس من تناول طعام العشاء ترنم جان كوجان بأغنية وتم حث جوزيف بورجراس على التغنى بأغنية أخرى • ففعل ذلك على الرغم منه •

وغابت الشمس وراء الأفق فى ضباب برتقالى اللون بينما كانوا هم مازالوا جالسين حيث كانوا يتحدثون فى مرح مثل آلهة الاغريق القدامى فى سمائهم •

وأحضرت ليدى الشموع الى الغرفة التى كانت تجلس فيها باتشيبا ولاحظ جبرييل أن بولدوود قد

دخل الى الغرفة وجلس بالقرب من باتشيبا . وبعدئذ جاء التساؤل : هل ستغنى لهم الآنسة افردين قبل أن ينصرفوا الى منازلهم ؟ وبعد أن تدبرت باتشيبا الأمر للحظات واقفت على أن تغنى لهم . ثم وقفت فى مواجهة الرجال بينما الشموع تتراقص خلفها .

وكان غناؤها رقيقا وضعيفا وعصبيا بعض الشىء فى بادىء الأمر الا أن صوتها ازداد وضوحا وثباتا تدريجيا . وقد تسببت الأحداث الأخيرة فى أن جعلت أولئك الذين تجمعوا هناك يتذكرون أحد أبيات تلك الأغنية . اذ كان ذلك البيت يتحدث عن جندى تسبب كلامه الجميل المعسول فى اقناع سيدة مرحة بأن تكون زوجة له .

وبعدئذ تمنت باتشيبا لهم ليلة سعيدة واغلق بولدوود النافذة وجذب الستائر . وبعد دقائق قليلة كان هناك مشهد حب رقيق مستترا وراء تلك الستائر . اذ كانت باتشيبا واقفة خلف مقعد منخفض بينما كان بولدوود راكعا ، ومستندا على مسنده فى اتجاهها وممسكا بيدها بين يديه .

وكانت تقول له بصوت مرتعش وبدون أن تظهر فى صوتها تلك الثقة المعهودة بالنفس : لسوف أحاول أن أحبك . واذا تمكنت من الاقتناع بأننى سأصبح زوجة ممتازة ، فسوف تتولد لدى الرغبة فى الزواج منك . وأنا لا أريد الآن أن أعدك بالزواج فى هذه الليلة .. ولكنى آمل أن أتمكن من الوعد بأن أصبح زوجة لك بعد مرور ستة أسابيع .. ولكن يجب أن تتذكر الآن بوضوح أننى لم أعدك حتى الآن بأننى سأتزوجك !

فقال المستر بولدوود : يكفى هذا ولن أطلب منك أكثر من هذا القول المطمئن . باستطاعتى انتظار سماع تلك الكلمات العزيزة .. والآن يا آنسة افردين طابت ليلتك !

ثم غادر المكان وهو يبتسم فى ارتياح وسعادة .

لقد تعرفت باتشيبا على الكثير من جوانب شخصيته . فقد أفضى بسريرة نفسه لها الى أن أصبح شبيها بطائر عظيم بدون الريش الذى جعله عظيما .

وبدأت تشعر أنها كانت جريئة الى حد الوقاحة فى الأيام الماضية ، فسبب لها هذا ما يشبه الصدمة النفسية وبدأت تناضل من أجل أن تضع الأمور فى نصابها، بدون أن تفكر فيما اذا كانت تستحق العقاب الذى كانت تفرضه على نفسها • ومع ذلك فهى فى هذا الموقف الرهيب قد بدا عليها كأنها تعثر على بهجة مخيفة !

الفصل الحادى و العشرون

كان من بين الواجبات العديدة الملقاة على عاتق باتشيبا وكذلك مدير المزرعة الخاص بها ، هو المرور حول مبانى المزرعة قبل الذهاب للنوم ، وذلك للتأكد من أن كل شيء على ما يرام • ولذلك كانت تحمل عادة فانوسا داكنا تستعين به فى فحص كل ركن مظلم ببرود رجل البوليس اللندنى • ولم تكن تتوقع اكتشاف أية أمور خطيرة تزيد عن مجرد دجاجة ضالة ، أو باب لم يتم غلقه بأحكام •

وفي هذه الليلة راحت تتجول حول المبانى كالمعتاد •

وكانت الاصوات الوحيده التي تقلق سكون الليل هي التنفس العميق المنطلق من أنوف غير مرئية ، واجترار الطعام المنتظم في العديد من الأفواه . وكان خيالهـا يساعد بصرها على التعرف فى أماكن متفرقة على رأس بني اللون به عينان جاحظتان محملقتان . وفوق العينين يوجد قرنان يميلان للون الأبيض ولهما شكل قمرين جديدين .

وكانت فى طريق عودتها للمنزل تسلك ممرا يخترق غابة صغيرة كانت قد زرعت بالأشجار لحماية المزرعة من الرياح الشمالية . وقد نمت الأشجار بكثافة شديدة فى تلك الغابة الصغيرة ، أن ضوء النهار لا ينفذ الى داخلها ولو كان الوقت فى منتصف النهار . وعندما تسللت فى هدوء شديد للأمام ، خيل اليها أنها تسمع وقع أقدام أمامها . أما أقدامها فكانت تخطو على الأرض فى مثل خفة الثلج . فأغلقت فانوسها . وبعدئذ طمأنت نفسها وقالت لنفسها أن ذلك الممر يمر فيه جماهير الناس بالمنطقة ومن المحتمل أن يكون هناك قروى فى طريق عودته الى منزله .

واقترب وقع الأقدام أكثر ، وبينما كان هيكل ما يمر بجوارها تماما . أمسك شيء ما بجونلتها ودبس الجونلة بشدة في الأرض ففقدت باتشيبا توازنها ولدى استعادتها لتوازنها ارتطمت بملابس دافئة بها مجموعة من الأزرار .

وجاء صوت رجل من على مسافة قدم أو نحو ذلك فوق رأسها :

ـ يا لها من مفاجأة ! هل تسببت فى ايذائك أيها الصديق ؟

فقالت باتشيبا وهي تحاول جذب نفسها بعيدا : لا !

ـ أعتقد أننا قد تشابكنا سويا على نحو ما ؟!

ـ نعم .

ـ هل أنت لمرأة ؟

ـ نعم

ـ انا رجل

فقالت : « أوه » ثم ارحت تجذب نفسها فى رفق مرة اخرى ولكن بدون جدوى .

ـ اذلك فانوس ..لو سمحت لى سأفتح الفانوس وأحررك .

وأمسكت يد الفانوس وقفزت أشعته من سجنها ، واكتشفت بانشيبيا وضعها وانتابتها الدهشة . فالرجل الذى تشابكت معه كان يرتدى زيا رسميا فاخرا من قماش أحمر ناصع وقطع نحاسية لامعة . لقد كان جنديا . وكان ظهوره الفجائى فى الظلام شبيها بصوت النفير الذى يدوى فى الصمت . وهى عندما توقعت ظهور هيكل ما مخيف بملابس سوداء كانت الحقيقة الواقعة أمرا غير ذلك .. اذ شاهدت شيئا جميلا ساحرا .

واتضح على الفور ان مهماز الجندى قد تشابك مع الشريط الحريرى الذى كان يزين حافة جونلتها .

ووقع بصره على وجهها **فقال فى مزيد من الأدب الجم** . سأحررك فى لحظات يا آنسة !

فقالت بسرعة : لا . شكرا لك باستطاعتى أن أحرر نفسى !

الا أن الشريط الحريرى كان ملفوفا حول المهماز بشدة حتى أن الأمر لم يكن سهلا واصبح من المتوقع أن يستغرق بعض الوقت . فانحنى هو الآخر لأسفل . وسطع الفانوس الموجود على الأرض بينهما ملقيا بالضوء على وجهيهما . ونظر نظرة عميقة فى عينيها عندما رفعت عينيها لاعلى للحظات . فغضت البصر مرة أخرى ونظرت لأسفل ولكنها لاحظت أنه شاب صغير فى السن ويضع ثلاثة أشرطة على ذراعه .

وقال فى صراحة : لقد أصبحت أسيرة يا آنسة . ينبغى على أن أمزق رداءك اذا كنت تريدين التحرر بسرعة . ولكن لا داعى لتمزيق الرداء اذا انتظرت لحظات أخرى ..

ثم راح يفك الخيط الحريرى . واستمر فى الفك للحظات طويلة بدت كأنها لا نهاية لها .

فصاحت فى ضيق : أوه · هذا أمر مخز ومخجل !
واستطردت : لقد تعمدت تعقيد الأمور أكثر وأكثر لكى تبقينى هنا فى هذا المكان · اننى أصر على أن أقوم بنفسى بفك هذا التشابك · اسمح لى بذلك !

ـ بالتأكيد يا آنسة ··

ثم أضاف قائلا فى تنهيدة :

ـ اننى سعيد بهذا الحسن والجمال ، حتى عندما يلقى لى مثل العظمة التى تلقى للكلب !

وراحت باتشيبا تفكر فى جذب نفسها جذبة قوية لتحرير نفسها حتى ولو أدى هذا الى ترك جونلتها كلها وراءها · الا أن هذه الفكرة كانت مريعة للغاية · اذ كانت تلك الجونلة هى أفضل وأحسن الملابس الموجودة عندها وهى قد ارتدتها لكى تبدو جليلة ورائعة أثناء مادبة العشاء ·

واستمر الشاب يقول فى تأمل وهو يرقب رأسها المنحنى لدى مناضلتها ومحاولاتها المضنية مع أشرطة الحرير المتشابكة :

ـ لقد رأيت فى حياتى العديد من النساء الجميلات ولكنى لم أشاهد امرأة فى مثل جمالك · ولا يهمنى ان كان كلامى هذا سيسىء اليك أو سيدخل السرور عليك ·

ـ من تكون أنت اذن ؟

ـ لست غريبا على هذا المكان · فأنا الرقيب تروى · وأنا مقيم فى هذا المكان · انظرى ! لقد فكت العقدة أخيرا · فأصابعك اللطيفة كانت أكثر حماسا وتلهفا من أصابعى · كم كنت أتمنى أن تكون تلك العقدة هى رباط الزواج بيننا الذى لا يمكن فك قيوده على الاطلاق !

وأدى كلامه هذا الى ازدياد الأمور سوءا · فنهضت واقفة وانسلت مبتعدة عنه فى حذر وقد أمسكت الفانوس فى يدها · وعندما حياها قائلا لها « مع السلامة » لم ترد عليه وانما استدارت وجرت بسرعة الى داخل منزلها ·

وكانت ليدى قد ذهبت توا الى فراشها · ففتحت

باتشيبا باب غرفة النوم وقالت : يا ليدى .. هل هناك أى جندى مقيم فى القرية .. جندى برتبة رقيب .. وهو جنتلمان بعض الشىء ووسيم الوجه ويرتدى معطفا أحمر اللون به كنار أزرق ؟!

ـ لا يا آنسة . ولكن ربما يكون الرقيب تروى قد جاء الى القرية هنا فى زيارة . وسبق له أن جاء الى هنا من قبل عندما كان سلاح الفرسان الملكى متمركزا فى كاستربردج .

ـ وما هى شخصية هذا الشاب ؟

ـ آوه يا آنسة اننى أخجل من التحدث عن شخصيته .. فهو رجل يميل الى المرح واللهو ! الا أنه ماهر وذكى وكان باستطاعته أن يجعل نفسه شخصا غنيا ميسور الحال . وهو يحمل اسم أحد الأطباء كوالد له بالاسم فقط ولكنه فى حقيقة الأمر ابن أحد اللوردات !

ـ شىء عجيب ! أحقا هذا الذى تقولينه ؟

ـ نعم . ولقد ربى تربية جيدة وتعلم فى مدرسة كاستربردج ودرس بها العديد من اللغات . الا أنه ضيع العديد من الفرص التى اتيحت له ثم التحق بالجيش ولكنه سرعان ما ترقى الى رتبة رقيب . فدماؤه النبيلة سوف تتألق رغم وجوده بين أوساط من الجنود العاديين . هل عاد حقا الى منزله يا آنسة ؟

ـ أعتقد ذلك يا ليدى . طابت ليلتك يا ليدى !

كيف يمكن لها أن تظل متضايقة منه . فالفتيات من أمثال باتشيبا على استعداد لتحمل قدر كبير من التصرفات غير العادية اذا كن يردن أن يمتدحهن أحد أو يتسلط عليهن ويسيطر عليهن أحد . وكان الشعور الأول هو الذى أثر عليها بالاضافة الى قدر ضئيل من الشعور الثانى . كما أن الحقائق المتعلقة بالمولد النبيل لهذا الشاب الوسيم قد جعلته شيئا من وجهة نظرها . وصاحت قائلة لنفسها وهى فى غرفتها الخاصة :

ـ يا له من أمر عجيب ! واننى لوقحة حقا لاننى اندفع هكذا مبتعدة عن رجل لا يتسم الا بالأدب والذوق

والشفقة !

كان من الواضح أنها لم تعد تعتبر امتداحه لجمالها من قبيل الاهانات لها . وكانت الغلطة المميتة التى ارتكبها بولدوود هى أنه لم يقل لها فى أى وقت من الأوقات أنها جميلة وجذابة !

الفصل الثاني والعشرون

وذات يوم عقب الانتهاء من عملية جز الصوف بأسبوع أو أسبوعين ، كانت باتشيبا تشعر بارتياح عجيب بسبب تغيب بولدوود وعدم تواجده فخرجت لرؤية حاصدى الحشائش اليابسة التابعين لها . كان النساء يقمن بتقليب الحشائش وتجميعها فى كومات . وكان الرجال يلقون بالأكوام فوق عربة القش . ومن خلف العربة ظهر معطف أحمر ناصع . لقد كان الرقيب حيث قد جاء للمساعدة فى أعمال القش لمجرد التسلية . وكان يحمل العربة بالقش فى بهجة وسعادة مع

الآخرين . وما أن شاهدها حتى غرز الشوكة الموجودة بيده فى الأرض وتقدم نحوها . فاحمر وجه باتشيبا بالخجل والارتباك وأشاحت بوجهها بعيدا عنه .

وقال العريف وهو يلمس طاقيته لتحيتها :
آه . الآنسة افردين ! .. **واستطرد :** لم يخطر على بالى مطلقا أننى كنت أتحدث معك فى تلك الليلة بالغابة . واعتذر لك لأننى انسقت وراء مشاعرى وعبرت عن رأيى بوضوح شديد . وحقيقة الأمر أننى لست شخصا غريبا فى هذا المكان . فكثيرا ما قمت بمساعدة عمتك فى هذه الحقول عندما كنت ولدا صغيرا . وكنت اليوم أقوم بنفس العمل من أجلك .

فقالت بدون أن تبدى كثيرا من الامتنان :
أعتقد أنه ينبغى على أن أشكرك على ذلك !

فبدا على الرقيب كأن مشاعره قد جرحت **وقال :**

— لا ينبغى عليك أن توجهى الى الشكر . لماذا تعتقدين أنه من الضرورى أن توجهى الى الشكر ؟

— يسعدنى أنه ليس من الضرورى أن أشكرك نظرا لأننى لا أريد أن أشكرك على أى شئ

— أخشى أن يكون لسانى قد أحدث نقبا لن يتمكن قلبى من اصلاحه على الاطلاق . لماذا ينبغى أن يلام رجل لأنه قال لأمرأة أنها جميلة ؟ ولكنى أفضل الحصول على اللعنات منك على الحصول على القبلات من أى امرأة أخرى !

فصاحت باتشيبا ضاحكة على الرغم منها بسبب الطرق الذكية التى يستخدمها : كل ما تقوله هو مجرد تظاهر وادعاءات كاذبة !

— ولكن يا آنسة افردين هل تغفرى لى ؟ .. لقد قلت أنك جميلة وهذه حقيقة مجردة لأنك جميلة بالفعل . أقسم لك

فقالت وهى فى حالة متارجحة ما بين عدم الثقة فى كلماته والرغبة فى سماع المزيد من كلامه :

— لا تقسم لا تحلف . لا أود الاستماع الى قسمك!

ـ ولكن من المؤكد ان كل الناس **الاخرين قد قالوا** لك أنك جميلة · أليس كذلك ؟ آه · حسنا يا آنسة افردين أنت تجلبين الحزن والحسرة والأسى الى جنسنا نحن الرجال !

فتساءلت وقد اتسعت عيناها : كيف يتم ذلك ؟

فبدا على الرقيب كأنه راح فى تفكير عميق **وقال:**
ان الرجل منا عادة يقع فى حب امرأة عادية · وتتزوجه ويكون راضيا عن حياته ويعيش حياة مثمرة · ولكننا نجد أن مائة رجل سيرغبون فى الزواج من امرأة واحدة جميلة مثلك · ويضـطر حوالى عشرين منهم الى اللجوء لشرب الخمر لاغراق همومهم فيها · ويضطر عشرون آخرون الى اتلاف حياتهم لانه لا يوجد أمامهم اية طموحات أخرى · ويضطر عشرون آخرون ـ وأنا ربما اعتبر واحدا من هذه الفئة ـ الى السير وراءك وتتبع خطواتك هنا وهناك والوصول الى حيث يمكنهم مشاهدتك · لأن الرجال مخلوقات غبية ومخلصة ! وقد يحاولون التغلب على مشاعر الحب فى داخلهم ولكن الجميع سيغرق فى

الحزن والكآبة أما الـ ٩٩ امـرأة اللاتى يتزوجن هؤلاء الرجال ، سيغرقن في الحزن والكآبة أيضا · تلك هى قصتى · وذلك هو السبب فى أن امرأة جميلة للغاية مثلك يا آنسة افردين من الصعب أن تكون بمثابة نعمة على الجنس البشرى !

وكان وجه الرقيب أثناء كلامه وقورا وقاسيا · وعندما لم ترد على كلامه **استطرد هو قائلا** : هل تقرأين اللغة الفرنسية ؟ ·· لقد كانت والدتى فـرنسية · والفرنسيون لديهم مثل مأثور معناه أن ذلك الشخص الذى يخلص فى حبه ينال عقابا صارما ·

هل تفهميننى ؟

فأجابت وقد اهتز صوتها قليلا : آه · لو كنت تقاتل بنصف الاقناع الذى تتحدث به ، لأصبحت قادرا على جعل الجرح الناجم عن ضربة سيف أمرا ممتعا ·· **ثم استطردت قائلة له فى تسرع** : لن استمع الى كلامك بعد ذلك على الاطلاق · ترى كم الساعة الآن ؟

وأدركت في وقت متأخر للغاية أنها أخطأت عندما قالت تلك العبارة ·

فقد نظر الرقيب الى ساعته **وقال لها مستفسرا :** أليس لديك ساعة يا آنسة ؟ اذن ستحصلين على ساعة !

وقبل أن تدرك ما يهدف اليه وجدت في يدها على الفور ساعة ذهبية ثقيلة ·

واستطرد هو **قائلا :** تلك الساعة لها تاريخ · اضغطي على اللولب وافتحي الغطاء الخلفي · ماذا تشاهدين ؟ ·· انه تاج صغير لأحد اللوردات والكلمات اللاتينية المكتوبة معناها [الحب هو العطاء] · وتلك الساعة كانت تخص والدي ، وهو المرحوم لورد سفيرين · وهي بمثابة الجزء الوحيد من ثروته التي آلت الى · وتلك الساعة كانت تدير شئون مصالح الامبراطورية : الاحتفالات العظمى والاجتماعات السرية والسفريات الملكية · والآن أصبحت هذه الساعة ملكك !

فصاحت في دهشة وتعجب : ولكنى لا أستطيع أن آخذها ·· لا أستطيع أيها الرقيب تروى !

فسار الرقيب للخلف لكى يتجنب استرداد الهدية حيث مدت يدها للأمام لكى تعيدها اليه · وعندما تراجع للخلف تبعته باتشيبا **وصاحت فيه :** كيف يمكن لك أن تعطيني ساعة والدك الميت ؟

فقال : لقد أحببت والدى ولكنى أحبك أكثر · وذلك هو السبب المباشر !

– ولكن كيف تهتم بى على هذا النحو الفجائى ؟ فأنت لا تكاد تعرفنى · لو سمحت خذ الساعة ! ولماذا ينبغى عليك أن تكون لطيفا معى الى هذا الحد ؟

وكان مستعدا باجابة ذكية ولكنه لم ينطق بها · وانما اكتفى بالنظر اليها · كان جمالها يستحق تماما كل المدح الذى قاله . حتى أنه قد ذعر تماما من أنه قد نطق كلمات المديح فى غير اخلاص · **وقال بطريقة آلية :** آه · لماذا ؟ ··

واستمر فى النظر اليها • فصاحت وهى غير مدركة للتاثير الذى كانت تحدثه على كيانه :

ـ ان العمال عندى يشاهدوننى وأنا أتبعك هنا وهناك فى الحقل وهم يتعجبون من رؤية هذا المشهد • أوه ! هذا آمر شنيع !

فانفجر قائلا : اننى فى بادىء الأمر لم أكن أرغب فى أن تقبلى الساعة كهدية • فهى البرهان والدليل الوحيد المسكين الذى يدل على دمائى النبيلة ومولدى النبيل • ولكنى الآن أريد منك أن تقبلى الهدية • ولكنك اذا كنت لا تستطيعين قبولها ، فانه ينبغى على الا أضغط عليك أكثر من اللازم !

ثم مد يده واسترد الساعة واستطرد : يجب على أن أتركك الآن •• هل لى ان أراك مرة أخرى ؟

ـ سوف ترانى بالتأكيد • ومع ذلك لا أعرف كيف سيتم ذلك • أوه ؟ لماذا جئت وسببت لى كل هذا الازعاج ؟!

ـ ربما أكون قد أوقعت نفسى فى الفخ الذى كنت أنصبه • فمثل هذه الأمور قد حدثت من قبل •

وداعا يا آنسة افردين !

وعاد الرقيب الى المجموعة البعيدة من العاملين فى القش والحشائش • ولكن باتشيبا لم تستطع الذهاب اليهم فى تلك الآونة • اذ كان قلبها يدق فى عنف بسبب الاثارة والقلق ، وكادت تنفجر باكية بالدموع عندما عادت الى منزلها وهى تتمتم قائلة : أوه ! ما هذا الذى فعلته ؟ ما معنى هذا الذى فعلته ؟ أود لو أعرف مدى جوانب الصدق فى كل هذا الذى حدث !!

الفصل الثالث و العشرون

وفى اليوم التالى كانت باتشيبا تتمشى فى حديقتها لترقب النحل الخاص بها . وكانت أعداد كبيرة من هذا النحل قد تركت أعشاش مناحلها واستقرت فوق قمة شجرة تفاح . مكونة كتلة سوداء متماسكة فى مواجهة السماء الناصعة . وكان الرجال والنساء التابعون لها ، بل وليدى أيضا . مشغولين فى حقل الحشائش . وكانت مصممة على استعادة النحل بنفسها . ضمت يديها فى قفاز جلدى ووضعت على رأسها قبعة عريضة مصنوعة من القش . كما وضعت على وجهها حجابا

كبيرا أخضر اللون . ثم ذهبت واحضرت سلما وفرشاة وخطافا طويلا ووعاء خاصا ووضعت السلم بحيث يكون مستندا على شجرة . وبدأت فى الصعود على السلم .

وفجأة سمعت صوتا قادما من مسافة لا تزيد على عشرة ياردات .. وهو صوت كان قد أخذ يحدث تأثيرا غريبا فى كيانها :

ـ يا آنسة افردين . دعينى أساعدك . لا ينبغى عليك القيام بمثل هذه الأمور بمفردك !

فاسقطت باتشيبا كل شئ فى يديها وجذبت جونلتها بأحكام حول نفسها وحول ساقيها وانزلقت هابطة الى أسفل السلم . وما أن وصلت الى الأرض حتى وجدت تروى هنالك . **وصاح** : كم أنا سعيد لحضورى فى هذه اللحظة !

وقبل أن تتمكن من الرد عليه قام هو بالتقاط المعدات بسرعة واستعد للصعود على السلم .

فقالت باتشيبا بعد أن عثرت على صوتها أخيرا

— ولكن ينبغى عليك أن تلبس القفاز والقبعة العريضة مع الحجاب والا سيلدغك النحل فى وحشية !

ثم قامت بخلع القفاز والقبعة والحجاب والبسته هذه الأشياء وراحت تربط الجزء الأسفل من القناع حول ياقته · وبعد لحظات قليلة أنهى مهمته بنجاح ونزل على السلم ممسكا بالوعاء على ذراعه بينما سحابة من النحل تتدفق خلف الوعاء ·

فقال تروى : هذا العمل الذى قمت به سيجعل ذراعى يموج بآلام أسوأ من الآلام المترتبة على التدريب على السيف لمدة أسبوع ·· **واستطرد** : هل سبق لك أن شاهدت آية تدريبات على السيف ؟ ·· لا ؟ ·· هل تودين ذلك ؟

فترددت باتشيبا · لقد سمعت من قبل أخبارا مدهشة عن هذه الأعمال المجيدة العظيمة الغريبة · **فقالت فى رفق ما كانت تحس به بقوة** : نعم أود ذلك تماما !

— ليس لدى سيف هنا ولكن باستطاعتى الحصول على سيف بحلول هذا المساء ·

ثم تمتم مقترحا عليها شيئا ما بصوت منخفض ·
فقالت باتشيبا وقد احمر وجهها خجلا : لا · لا لا أستطيع ذلك !

لكنها ضعفت وأذعنت **وقالت** :

— حسنا جدا · سوف أجىء ولكن لمدة قصيرة فقط !

فقال تروى : لن يستغرق الأمر أكثر من خمس دقائق ·

وفى الساعة الثامنة من هذا المساء الواقع فى منتصف موسم الصيف ، وبينما كانت الكرة الذهبية للشمس بالسماء الغربية تكتسح التلال بأشعتها الرائعة ، أخذت باتشيبا تشق طريقها الى واد منعزل ومهجور يقع على مسافة ميل واحد من بيتها · وفجأة استدارت وعادت راجعة فى اتجاه منزلها ·

وبعد أن قطعت نصف المسافة نظرت فيما حولها فشاهدت بقعة باهتة حمراء اللون فراحت تجرى عائدة مرة أخرى فى اتجاه التل • وعندما وصلت الى حافة الوادى التى تشبه صحن الفنجان أصبحت لاهثة ومتقطعة الأنفاس ومرتعدة • وكان تروى واقفا أسفل المنحدر وينظر لأعلى نحوها •

وقال وهو يخرج السيف الذى تلالأ فى ضوء الشمس تحية لها : والآن نلاحظ أولا أن تكون هناك أربع ضربات سريعة نحو اليمين وأربع ضربات سريعة نحو اليسار •

فشاهدت باتشيبا نوعا من قوس القزح رأسا على عقب فى الهواء ثم توقفت ذراع تروى مرة أخرى • **ثم استطرد** : ونحن نستخدم نصل السيف وسنه المدبب فى أعمال الهجوم والدفاع على حد سواء •

وراح يشرح لها ذلك عمليا • **ثم قال** : ونطارد العدو الهارب بهذه الطريقة •

وبين لها ذلك عمليا • **واستطرد** : والجنود المشاة

لهم ضربتان لأعلى مميتتان ونحن جنود الفرسان لا نستخدمهما : وهما على هذا النحو ••

ـ يا لهم من أناس قتلة وسفاكين للدماء !

ـ انهم يتميزون بالقسوة بعض الشئ • والآن سأعرض لك أمورا مسلية • أنت ستقومين بدور العدو أمامى • ولكنى فى كل مرة سأخطئك بمسافة عرض شعرة رأس واحدة •

وعليك الالتزام بعدم التحرك على الاطلاق !

وبدأت روح المغامرة الكامنة فى كيان باتشيبا تستمتع بهذه التجربة غير العادية • فوعدته بالوقوف ساكنة دون حراك واتخذت موقعا لها أمامه •

ـ ولكنى أعرف الآن ما اذا كانت لديك الشجاعة الكافية سأقوم بتجربة مبدئية عليك •

وتلالأ السيف بجوار جانبها الأيسر • وظهر عند جانبها الأيمن • كما لو كان قد اخترق جسدها • وتم كل شئ بسرعة هائلة كالتيار الكهربائى •

فصاحت فى رعب وهى تضغط بيدها على جنبها :

ـ آوه ! هل جريت بالسيف فى داخل جسدى ؟ .

لا . لم يحدث ذلك . اذن ماذا فعلت بالضبط ؟

فقال تروى فى هدوء : لم المس جسمك على الاطلاق . والآن . هل أنت خائفة ؟ اذا كنت تشعرين بالخوف لن أستمر فى هذه الاستعراضات !

ـ لا أعتقد أننى خائفة . ولكن أأنت واثق أنك لن تحدث بى جراحا ؟ وهل السيف حاد للغاية ؟

ـ آوه . لا تخافى . عليك فقط بالوقوف ساكنة تماما مثل الصخرة !

وفى لحظة شعرت باتشيبا أنها محاطة بأشعة ضوء الشمس المنعكسة على نصل سيف تروى الذى بدا وكأنه يشغل كل مكان بمجرد صدور الوميض عنه . ومروره فى الهواء بصوت حاد كالصفير . وخلف النصل كان باستطاعتها مشاهدة ذراع سيفه الذى يمتد مثل ضباب أحمر اللون . وخلف تلك الذراع كان يلوح وجه

تروى حيث كانت عيناه تقيسان دائما عرضها وخطوطها الخارجية . وكانت شفتاه مزمومتين فى تصميم . وأخيرا أصبحت حركاته بطيئة حتى أنها أصبحت تشاهد تلك الحركات منفصلة بعضها عن البعض الآخر . وبعدئذ انتهى التصفير وتلاشى تماما بعد أن توقف عن الحركة .

ثم قال قبل آن تتحرك من مكانها او تنطق بكلمة واحدة :

ـ الأمر يستلزم ربط ذلك الجزء المتموج من الشعر .. **واستطرد :** انتظرى . سأقوم بربط هذه الكتلة الصغيرة من الشعر نيابة عنك .

ثم لمع السيف فى وميض وسقطت كتلة الشعر الصغيرة على الأرض . فصاح تروى : برافو ! انك لم ترتعدى قيد أنملة . أنت رائعة فمن النادر أن تكون هناك امرأة فى مثل هذا الثبات ! والآن مرة أخرى . سأقوم بقتل تلك الحشرة الواقفة عليك . ممنوع الحركة تماما !

كانت الحشرة واقفة فوق الجزء الأمامى من

ردائها . وشاهدت الجزء المدبب الأمامى للسيف يتلألأ نحو صدرها حيث بدا وكأنه يدخـــل فى صدرهـا فأغمضت عينيها وقد أيقنت أنها قتلت فى نهاية الأمر . ثم فتحت عينيها كالمعتاد مرة أخرى .

وقالت باتشيبا فى دهشة عندما مد سيفه وشاهدت هى الحشرة ملتصقـــة على سن السيف : انه سحر ، رائع ! ..

ثم تساءلت : ولكن كيف تمكنت من قطع كتلة من شعرى بسيف ليس له حافة حادة ؟

ليس له حافة ؟ ان السيف يمكن استخدامه فى الحلاقة مثل موس الحلاقة . لقد كذبت عليك كذبـة صغيرة لكى لا ترتعدى من الرعب . وحقيقـة الأمر أن السيف كاد أن يكشط أجزاء من بشرتك على مدى ٢٩٥ مرة .

فصاحت باتشيبا : هذه قسوة شـــديدة منك ! قسوة !

ثم جلست على الأرض فوق العشب وقد صـــاج

ذهنها بالاضـطراب والارتبـــاك بعد أن تغلبت عليهـا مشاعرها تماما .

فقال تروى فى رقة : لقد كنت فى أمان تام لأن سيفى لا يخطىء على الاطلاق .. والآن ينبغى على أن أتركك وأنصرف ولكنى سأحتفظ بهذا كتذكار منك !

ثم انحنى على الأرض والتقط كتلة الشعر الصغيرة ولفها حول أصابعه وفك زرار جيبه ووضعها فى داخـل الجيب . وبعدئذ ازداد اقترابه منها . فشعرت أنها غير قادرة على مقاومته أو رفض طلبه .

وبعد لحظات شاهدت زيه الرسمى الأحمر اللـون وهو يختفى بين الشجيرات . وكانت تلك اللحظـــات قد دفعت بالدماء الى وجهها وأشاعت الاضطراب فى جميع أرجاء جسدها كما لو كانت مشتعلة بالنيران . وبعدئذ انفجرت باكية بالدموع بعد أن سيطرت عليها مشاعـر الخجل من نفسها .. لماذا ؟ .. لأن فم تروى قد هبط فى رفق فوق فمها .

فهو قد قام بتقبيلها .. !

الفصل الرابع والعشرون

وبعد أسبوع أو نحو ذلك قام تـروى بابـلاغ باتشيبا أنه ذاهب الى بات لزيارة صديق له · وكانت باتشيبا قد أصبحت أنئذ واقعة فى حبه تماما · حتى أنها رفضت الاستماع الى أى كلام قيل فى غير صالحه · بل وتشاجرت شجارا مريرا مع جبرييل أوك عندمـا توسل اليها وطلب منها الاحتراس وعدم الاندفاع · وبعد ذلك بساعة واحدة تشاجرت بجنون مع ليدى فى مشهد رهيب تحول من الغضب الى الدموع ومن الدمـوع الى القبلات · ولقد قامت فى نفس هذا المساء بكتابـة

خطاب موجه الى بولدوود ذكرت له فيه فى شىء من الحزم الممزوج بالرفق أنها قد اتخذت قرارا نهائيا : وهو أنها لا تستطيع أن تتزوجه ·

وفى مساء اليوم التالى غادرت باتشيبا المنزل لكى لا تتيح الفرصة لبولدوود لمقابلتها فى حالة مجيئه اليها للرد على رسالتها شخصيا · ولكى تعتذر عن مشاجرتها مع ليدى فانها منحتها اجازة لمـدة أسبوع لكى تزور اختا لها متزوجة وتسكن فى الغابة الواقعة على مسافة أميال قليلة · ووضعت الترتيبات على أساس أنها ينبغى أن تشرفهم وذلك بالاقامة معهم ليوم واحد أو يومين ·

ثم تركت باتشيبا المنزل وطـلبت من ماريان أن تتولى شئون المنزل نيابة عنها أثناء غيابها وانطلقت عقب توقف المطر الرعدى · وما أن قطعت مسافة ميلين تقريبا حتى شاهدت نفس الرجل الذى كانت ترغب فى تجنب مقابلته ·· شاهدته آتيا فوق تل يالبرى فى اتجاهها ·

كانت مشيته بطيئة وغير راسخة وذلـك بعكس خطواته الثابتة المعهودة · كانت نظراته متجهة نحـو

الارض ولم يشاهدها الا بعد أن أصبح على مسافة ياردات قليلة منها • حيث نظر لأعلى وكان الألم البادى على وجهه أكثر تعبيرا من الكلمات •

وقال عندما بدا عليها كأنها تريد تفادى اللقاء معه :

– ماذا فى الأمر ؟ أأنت خائفة منى ؟ أنت تعرفين أن حبى لك قوى وعميق مثل الموت •• وطردى عن طريق خطاب متسرع لن يغير حبى لك !

فقالت باتشيبا فى تمتمة : آمل ألا يكون حبك لى قويا على ذلك النحو • انه لأمر كريم منك أن تحبنى •• ولكن لا ينبغى أن أستمع لك الآن !

– تسمعين ؟ ماذا تظنين أنى قائل ؟ لقد قلت فى خطابك أنك لن تتزوجينى وذلك يكفى تماما •• فخطابك كان واضحا تماما !

وشعرت باتشيبا أنها محاصرة ولا سبيل امامها

للخروج من هذا المأزق الحرج • **فقالت فى ضعف :** طابت ليلتك !

كانت على وشك مواصلة السير عندما **انفجر بولدوود قائلا :** أوه • يا باتشيبا ! بالله عليك ارحمينى ! •• نعم • لقد تدهور بى الحال كثيرا حتى أننى أطلب الرحمة من امرأة !! •• رحمة بى كرجل يشعر بالوحدة القاسية لا تلفظينى الآن !

– اننى لا ألفظك • كيف لى أن أفعل ذلك ؟ فأنا لم ارتبط بك فى أى وقت من الأوقات !

– لقد جذبت انتباهى اليك بارسالك تلك الرسالة – بطاقة عيد القديس فالنتين – أنت قد شجعتينى !

– ما تسميه أنت بالتشجيع كان بمثابة لعبة طفولية قامت بها امرأة تشعر بالفراغ وتريد أن تسلى نفسها • ولقد أسفت بشدة على هذا التصرف من جانبى • نعم • أسفت بشدة وبكيت بالدموع بسبب هذا

التصرف . فهل ينبغي عليك أن تظل تذكرني بهـــذه الغلطة التي وقعت فيها ؟ ألن تغفر لى وتنظر الى المسألة كلها بنوع من المرح والبشاشة ؟

ـ مرح وبشاشة ! هل يمكن لرجل تم استغفاله أن يجد سببا يدعوه للبشاشة والمرح ؟ يا آنسة افردين انت لست امرأة غير مكترثة على النحو الذى تتظاهرين به الآن . فأنت تموجين بقدر كبير من الحب . ولكن ذلك الحب قد تحول الى اتجاه آخر . وأنا أعرف مكان ذلك الاتجاه !

وتوقف عن الكلام وبدأ قلب باتشيبا يــدق فى وحشية . ربما قد سمع شيئا عن عـــلاقتها بالرقيب تروى !

وبرهنت اللحظة التالية على أنه يعرف تلك العلاقة حيث قال : لماذا لم يترك تروى كنزى وشـــأنه ؟ .. فقبل أن يفرض هو نفسه عليك كنت أنت على استعداد كامل للزواج منى . أليس كذلك ؟!

فتأخرت فى الرد عليه قليلا **ولكنها ردت فى صدق وأمانة :** نعم !

ـ لقد سرق قلبك أثناء غيابى . لماذا لم يكسب قلبك قبل أن أعرفك؟ ان الناس الآن يضحكون استخفافا بى . لقد فقدت هيبتى واحترامى وفقدت سمعتى بين الناس ، وضاع مركزى فى المجتمع .. ولن أتمكن من استرداد هذه الأمور مرة أخرى . اذهبى وتزوجى الرجل الذى تحبينه . اذهبى ! فزيه الأحمر الناصع قد ترك غشاوة على عينيك . وهو قد قبلك . هل تسمعيننى ؟ لقد قبلك بالفعل . هل تقسمين على أنه لم يقبلك ؟!

فقالت فى شجاعة على الرغم من شعورها بالخوف :

ـ نعم . لقد حدث ذلك . وأنا لا أخجل من ذكر الحقائق !

فانفجر بولدوود فى غضب هامس : لعنة اللــه عليه ! .. لسوف أجعله يندم على كل ذلك يوما ما .. وعندئذ سيسب ويلعن مثلما أفعل انا الآن !

فتوسلت اليه بصيحة مليئة بالبؤس والشقاء :

— لا تفعل ذلك · لا تتمنى له الشر ! كن شفوقا عليه يا سيدى لاننى احبه حبا صادقا !

ولكن ذهن بولدوود كانت تجتاحه مشاعر الغضب الشديد حتى أنه لم يعد يسمع توسلاتها **فاستطرد قائلا :** سانزل به العقاب ·· ساضربه بالسياط لأنه سرق الكنز الخاص بى · ولسوف ··· ···

ثم أخفض من صوته فجأة وعلى نحو غير طبيعى **وقال :** يا باتشيبا ·· أيتها الفتاة الحلوة الجميلة · لقد كنت أوجه اللوم لك بينما غلطته هو هى الغلطة الفادحة · لقد تمكن من سرقة قلبك عن طريق حيله الخادعة الخسيسة · ومن حسن الحظ أنه قد عاد الى ثكنات الجيش · وآمل الا يعود فى القريب العاجل · أوه أبعديه عن طريقى ·· أبعديه !

واستدار وتركها · وسرعان ما اختفى هيكله فى الضوء الآخذ فى الأفول والتلاشى · وضاعت أصوات وقع أقدامه بين الأشجار الهامسة ·

فغطت باتشيبا وجهها بيديها · كانت تدرك أن تروى سيعود خلال يوم واحد أو يومين وسيمكث حوالى اسبوع ليعود بعد ذلك الى ثكناته · فاذا ما تقابل مع بولدوود بطريق الصدفة ستنشأ مشاجرة وحشية مما قد يؤدى الى اصابة تروى بالجراح · فأى قدر ضئيل من الاهانة سيثير غضب بولدوود · وقد يؤدى غضبه الى الاندفاع نحو الانتقام · ينبغى عليها أن تمنع حدوث الصدام بينهما بأية وسيلة · وينبغى أن تتصرف على وجه السرعة ·

وبعد مرور ساعتين استيقظت ماريان فجأة وهى تشعر ان شيئا ما غير مريح قد أشاع القلق فى نومها · فنظرت الى الخارج من النافذة فشاهدت هيكلا ظليا يقود حصان باتشيبا من الحقل المجاور للمنزل · وبعد دقائق قليلة سمعت حصانا وعربة يتم جرهما الى الخارج فى الحارة · وكانت بمفردها بالمنزل وخشيت أن تصيح بصوت عال أثناء وجود اللص · وبعد أن اختفى اللص تماما ارتدت ملابسها وجرت الى منزل كوجان — وهو أقرب منزل لها — طلبا للنجدة والعون · فقام جان

بايقاظ جبرييل الذى كان يقيم هناك وذهبا سويا الى الحقل . لقد سرق الحصان ما فى ذلك شك .

وتساءل جان : كيف يمكن لنا أن نتتبعه ؟ فالخيول فى مزرعتنا بطيئة ولا تصلح للمطاردة السريعة . ولكننا اذا حصلنا على الحصانين التابعين للمستر بولدوود الموجودين عند السياج هنالك سنتمكن من عمل أى شىء .

وبعد عشر دقائق كانا منطلقين فوق حصانى بولدوود . ولكن اللص كان قد أصبح على مسافة بعيدة للأمام وعند كل مفترق طرق كانا يضطران للنزول عن الحصانين وفحص آثار الأقدام تحت ضوء أعواد الثقاب . وأخيرا وصلا الى الطريق الرئيسى المؤدى الى باث . وهناك شاهدوا أمامهم مباشرة الحواجز الخمسة البيضاء للبوابة التى تعترض الطريق كما شاهدوا الشكل القاتم لعربة تقف أمام البوابة . كان البواب خارجا لتوه من منزله دون أن يكمل ارتداء ملابسه وقد أمسك بيده مصباحا .

فصاح جبرييل : دع البوابة مغلقة ! لقد سرق الحصان !

ولكنه عندما اقترب بحصانه ونظر فى وجه السائق شاهد وجه امرأة .. شاهد وجه سيدته باتشيبا !

فتساءلت : وهى تغطى دهشتها باللجوء الى البرود وهدوء الأعصاب : حسن يا جبرييل الى أين أنت ذاهب ؟ هل كنت تتبعنى وتسير ورائى ؟

فقال جبرييل فى ارتباك : لقد اعتقدنا أن الحصان قد سرق .

ــ كم أنتم أغبياء ! ألا يمكن لسيدة أن تتحرك مقدار بوصة بعيدا عن بابها بدون مطاردتها كأنها لصة ؟ هناك موضوع هام جعلنى ألغى زيارتى لليدى وانطلق على الفور . ولم أستطع ايقاظ ماريان رغم أننى طرقت على بابها بشدة . يا لله ... أليس هذان الحصانان يخصان المستر بولدوود ؟ .. لماذا تجلبون على المتاعب بهذه الطريقة ؟!

فتساءل جان كوجان : وكيف لنا ان نعرف الأمور التى تحدث طالما أنك لم تطلعى أحدا على تحركاتك ؟ فالسيدات لا يسقن العربات فى هذه الساعات المتأخرة بوجه عام يا آنسة !

ـ لقد تركت بالفعل خبرا يفيـد بأننى غـادرت المنزل • فقد كتبت ذلك بالطباشير على باب الاسطبل •

ورغم أنها كانت متضايقة الا انهـا كانت لديهـا الرغبة فى توجيه الشكر لهما على اخلاصهما الشديد • **ولذلك اضافت قائلة :**

ـ أشكركما على تكبد كل هذه المشاق • أيمكن ان تعودا الآن لو سمحتما ؟ فانا باستطاعتى تدبير امورى جيدا • ولسوف أصل الى باث مع تباشير الصباح ••

ومرت من البوابة وانطلقت متوارية فى الظلام • واستدار جان وجبرييل بحصانيهما • وقال جان بينما كانا ينطلقان عائدين الى المنزل : ولكنها لن تصل الى باث بحلول ضوء الصباح !

القصل الخامس والعشرون

ومر أسـبوع بدون أن تصـــل أية أنبـاء عن باتشيبا • وبعدئذ وصلت رسالة الى ماريان تقول فيها أن الأعمال ما زالت تبقيها فى باث • ومر أسبوع آخر وبدا حصاد القمح • وفى داخل المنازل لم تكن هناك اصوات سوى أصوات الذباب • وفى الخارج كان جميع الرجال يعملون بالحقول تحت سماء شديدة الزرقة • وبين نسمات الهواء المرتعدة فى ظلال الظهيرة •

وكانوا على وشك الحصـول على قدر من الراحة فى الظل عندما ظهر هيكل يرتدى معطفا أزرق به أزرار

نحاسـية ، ويهرول نحوهم عبر الحقـول • كان ذلك الهيكل هو كين بول الذى كان فى أجازة لأيام قليلة حيث حدثت اصابة فى يده منعته من العمل معهم • وكان يأكل أثناء الجرى وعندما اقترب منهم بدأ يكح فى عنف •

وقال ردا على تأنيب وجهــه له جبرييـل : لقد انزلقت قطعة من الخبز فى مكان خاطىء يا مستر أوك ! ثم استطرد : لقد كنت فى زيارة لباث وشاهدت بنفسى سيدتنا هناك •

وتزايدت الكحة فعرقلته عن مواصلة سرد الأنباء ثم صب له جان بعض السيدر (١) فى فمه • ولكن الكحة ازدادت سوءا • وصاح كين بمجرد أن تمكن من التحدث مرة أخرى فقال : لقد ارتفع السيدر الى أنفى •• والآن هبط السيدر الى أسفل رقبتى •• وفوق أفضل الثياب عندى !

---

(١) مشروب يستخرج من عصير التفاح •

وتساءل جبرييل فى نفاد صبر : ماذا شـاهدت يا كين ؟

ـ لقد شاهدت سيدتنا تدخل فى حديقة وقـد تأبطت ذراع جندى • وأعتقد أن ذلك الجندى هو الرقيب تروى • وكانت هى ترتدى فستانا حريريا ذهبيا •• وكانت تسريحة شعرها رائعة • ثم جلسا سويا فوق أحد المقاعد لمدة نصف سـاعة حيث كانا يتحدثان فى اهتمام وجدية ووقار • وكانت هى تبكى أيضا • وعندما خرجا من الحديقة كانت عيناها تلمعان • وبعدئذ دخلت أنا فى محل لبيع الفطائر ، ولم أشـاهدهما بعد ذلك مرة أخرى ••

وبعد أن حصل الرجال على قدر من الراحة عادوا جميعا الى أعمالهم بما فيهم جبرييل • لم يكن جبرييل ملزما بتقديم المساعدة فى انجاز الأعمال بحقل القمح • ولكن القمح كان قمـح باتشـيبا ، ولذلك تطوع لأداء المسـاعدة • وكان جان كوجان يفهم مشـاعره تماما ولذلك قال فى هدوء :

— لا تقلق عليهـا هكذا يا جبرييل . فطالما انها ليست معشوقتك فهل يهمك لمن تكون هى معشوقة ؟

فقال جبرييل : ان ذلك هو بالضبط ما أقوله لنفسى !

وفى نفس هذا المساء كان جبرييل مستندا على بوابة حديقة كوجان قبل الذهاب للنوم عندما سمع صوت عربة يجرها حصان آتية فى الحارة ، فتعرف على الفور على صوتى باتشيبا وليدى . وشعر بالارتياح لعودتها بالسلامة الى منزلها . وطارت جميع الأفكار الأخرى من رأسه . ومرا بالعربة وظل هو واقفا هنالك الى أن خيم ظلام الليل تماما وملأ السماء . وبعدئذ مر أمامه ببطء هيكل قاتم **وقال له** : مساء الخير !

وكان ذلك الهيكل هو بولدوود . فرد جبرييل التحية ثم دخل للمنزل للنوم على السرير . ولكن بولدوود استمر فى سيره فى اتجاه منزل باتشيبا وطرق بابها .

ولم يكن قد خرج من مزرعته منذ أن قابلها فى آخر مرة . وكان قد ظل حبيسا للصمت والوحدة ومليئا بالأفكار المريرة ، الا أن حالته النفسية قد تحسنت تدريجيا ، فجاء ليعتذر لها عن انفجاره العنيف . وكان قد سمع توا أنباء عودتها . ولكنه كان يعتقد انها كانت مع ليدى حيث لم يكن يعرف أية أخبار عن رحلتها الى باث .

وكانت طريقة ليدى وسلوكها غريبا عندما وصلت الى الباب ولكنه لم يلحظ ذلك . **وقالت له بعد أن اخذت منه رسالته** : ان سيدتى لا تستطيع مقابلتك يا سيدى!

فغادر المكان على الفور ولكنه لم يسرع بالعودة الى منزله . وكانت الساعة العاشرة مساء عندما شاهد عربة تدخل القرية . وخرج من العربة هيكل يرتدى الزى الرسمى الأحمر اللون وسار الهيكل صاعدا التل فى اتجاهه ، وقد أمسك بيده حقيبة سفر .

فتقدم بولدوود خطوة للأمام **وقال** : الرقيب تروى ؟ .. أنا وليام بولدوود !

— حقا ؟

وكانت الطريقة التى قيلت بها هذه الكلمة كافية لأن تجعل بولدوود يدخل فى الموضوع مباشرة • **اذ قال** : أود التحدث معك بشأن السيدة التى تعيش أمامنا هناك وبشأن سيدة اخرى أسأت اليها من قبل •

فقال تروى وهو يحاول مواصلة المسير : اننى أتعجب من أخلاقك السيئة !

فقال بولدوود وهو يقف أمامه ليمنعه من مواصلة المسير : استمع الى • لسوف تتحدث معى سواء رغبت فى ذلك أو لم ترغب !

وأدرك تروى التصميم الذى يشع من صوته ونظر الى بنائه الجسمانى القوى وشاهد العصا الغليظة التى يمسكها فى يده **فقال** : حسن • سأستمع اليك • ولكن عليك بالتكلم بصوت منخفض لكيلا يسمعنا أحد ••

— اننى أعرف مسألة حب فانى روبين لك • ينبغى عليك أن تتزوجها !

فقال تروى بعد لحظة صمت :

— من المفروض أنه ينبغى على • ولكننى لا أستطيع لأن •• **ثم استطرد قائلا** : لأننى فقير للغاية !

وتغيرت نبرة صوته • كان صوته فى بادىء الأمر شجاعا ولكنه أصبح بعدئذ مليئا بالخداع والدهاء •

ولم تكن الحالة الذهنية لبولدوود تسمح له بملاحظة هذا التغير الذى طرأ على صوت تروى • **فاستطرد** : اننى أهدف الى عمل ترتيبات معك تعود عليك بالنفع والفائدة • لقد كنت أنا أضع فى خطتى الزواج من الآنسة افردين • ولو لم تظهر أنت فى أفق حياتها ، لكانت قد وافقت بالفعل على الزواج بى فى هذه الآونة • وأنت كنت ستتزوج فانى لو لم تشاهد باتشسيبا • وهناك فارق كبير للغاية فى الوضع الاجتماعى بينك وبين الآنسة افردين • ولذلك فأنا أطلب منك ألا تزعجها بعد ذلك • تزوج فانى وأنا أقوم بمساعدتك !

ـ كيف ؟

ـ سأدفع لك مبلغا كبيرا من المال الآن بحيث لا تعانى من الفقر مستقبلا . خذ حقيبتك وعد أدراجك واترك وذربرى فى هـذه الليلة . وعندئذ سأعطيك خمسين جنيها الآن . وقل لى عنوان فانى لكى أعطيها خمسمائة جنيه فى نفس اليوم الذى تتزوج فيه .

وكان صوت بولدوود يوحى بانه يدرك مـدى ضعف موقفه . فهو قبل شهور قليلة كان سيحتقر مثل هذه الخطة على أساس انها خطة حمقاء وصبيانية .

فقال تروى : اننى افضـل فانى . واذا كانت الآنسة افردين فى غير متناول يدى كما تقول فانه من الأفضل لى أن أقبـل النقود وأتزوج فانى رغم أنهـا ليست سوى خادمة . لقد قلت خمسين جنيهـا فى الحال !؟

فقال بولدوود وهو يعطى تروى مجموعة صغيرة من النقود : نعم . لقد قلت ذلك . وها هى خمسون جنيها من الذهب !

وفقال تروى هامسا : انصت ..

وترامى صـوت وقع أقدام خفيفة على الطريـق أمامهما . **فاستطرد تروى :**

ـ انها باتشيبا . ينبغى أن أذهب لمقابلتها !

فقال بولدوود فى دهشة : باتشيبا ؟ .. تخرج وحدها فى هذه الساعة المتأخرة ليلا ! ولماذا ينبغى عليك ان تقابلها ؟

ـ انها تتوقع مجيئى الآن . والآن ينبغى على ان اذهب اليها واودعها للأبد تنفيذا لرغبتك . ولسوف تسمع كل الكلام الذى أقوله لها . أمسك حقيبتى نيابة عنى . وارهف السمع !

واقترب صـوت وقع الأقـدام الخفيفة . وكان الصوت يتوقف من وقت لآخر كما لو كانت تحاول الاصغاء لسماع أى صوت . وراح تروى يحدث صفيرا مزدوجا مثل تغريد الطيور وتقدم للأمام نحوها .

وجه صـوت باتشيبا رقيقا : فرانك يا عزيزى

هل جئت يا حبيبى ؟ .. لقد تأخرت كثيرا عن موعدك ! فلقد سمعتك تدخل الى القرية بالعربة منذ بعض الوقت .. يا فرانك . من حسن الحظ أنه لا يوجد بالمنزل سواى . اذ أرسلت ماريان لمنزلها لقضاء الليلة هناك . وليدى قد ذهبت الى جدها لتخبره باجازتها .

فقال تروى : شيء رائع ! اسبقينى الى منزلك لحين احضار حقيبتى وأعدك أن أصل الى غرفة الجلوس بمنزلك فى خلال عشر دقائق .

فاستدارت وقفلت راجعة .. وأثناء هذه المحادثة كانت شفتا بولدوود المزمومتان ترتعدان ، وكان وجهه غارقا فى العرق الغزير . وما أن رجع اليه تروى حتى قفز عليه وأمسكه من رقبته .

وشعر تروى بقبضة بولدوود الحديدية حول رقبته **فقال :** توقف عن هذا . انك بهذا التصرف تؤذى الانسانة التى تحبها !

فزمجر بولدوود ورفع يديه عن رقبة الجندى

دون أن يكون راغبا فى ذلك . والقى بتروى على السياج **وقال له :** أيها الشيطان !

وكان تروى على وشك الرد على هجومه بهجوم مضاد ولكنه كبح جماح نفسه **وقال فى هدوء :** القتال طريقة غير حضارية فى تسوية الخلافات . فانا سأترك الجيش قريبا لنفس هذا السبب . وطالما أنك قد شاهدت بنفسك مدى حب باتشيبا لى فانك سترتكب خطأ جسيما اذا قتلتنى . اليس كذلك ؟!

فقال بولدوود مرددا نفس العبارة بطريقة تلقائية :

ـ سيكون خطأ جسيما اذا قتلتك .

ثم استطرد فى قلق وعصبية : تروى . اتخذ منها زوجة لك . فانا الآن لم أعد أريدها . وينبغى عليها أن تحبك لكى تبيع نفسها لك مثلما فعلت . يا لها من امرأة تعيسة ! امرأة ضالة !

فقال تروى : ولكنها تمتلك ارادة قوية .. ولها

مزاجها الخاص بها .. ولسوف أكون مجرد عبد لها . كان باستطاعتى عمل أى شىء مع فانى روبين .

فتوسل بولدوود قائلا : يا تروى . لا تتركها الآن . لا تترك باتشيبا . اخلص فى حبها .. وكن رفيقا وحنونا عليها .. ولسوف أفعل أى شىء من أجلك . أود أن تسارع بالزواج منها . وينبغى عليك أن تدعنى أساعدك !

— كيف ؟

— بأن تعطى النقود لباتشيبا بدلا من اعطائها لفانى . لا . انها لن تقبل النقود . سأدفع لك النقود فى يوم الاحتفال .

ودهش تروى من السخافة الجامحة لمشاعر الحب لدى بولدوود . **وقال فى غير اهتمام** : هل لى أن أحصل على أى شىء الآن ؟ .

فجذب بولدوود حافظة نقود من جيبه **وقال** : نعم . اذا كنت ترغب فى ذلك . لدى فى هذه المحفظة

٢١ جنيها واذا جئت الى منزلى سنكتب اتفاقا بالمبلغ الباقى .

فقال تروى : سنذهب أولا الى باتشيبا ونخبرها .

ثم سارا سويا نحو منزلها . وعندما وصلا الى مدخل المنزل **قال تروى** : انتظر لحظة .

ثم انزلق الى داخل المنزل . وبعد دقيقتين ظهر مرة أخرى وقد أمسك بيده شمعة وجريدة مطوية **وقال** : أيمكنك أن تقرأ هذه الجريدة ؟ سأرفع لك الضوء لتتمكن من القراءة .

فنظر بولدوود وقرأ :

حالات الزواج

فى ١٧ أغسطس وبكنيسة القديس أمبروز وفى بلدة باث . تم عقد قران فرنسيس تروى وهو الابن الوحيد للمرحوم الدكتور ادوارد تروى من

ودربى وهو رقيب فى حرس الفرسان الحادى عشر . على باتشيبا وهى الابنة الوحيدة للمرحوم المستر جون افردين من كاستربردج .

ووقعت الجريدة من يد بولدوود . **واستطرد تروى ضاحكا فى استخفاف وهو يقول** : ٥٠ جنيها من أجل أن اتزوج فانى . شىء حسن . وواحد وعشرون جنيها لكيلا أتزوج فانى وانما لكى أتزوج باتشيبا . شىء حسن . وما هى النتيجة : اننى زوج باتشيبا بالفعل . والآن يا بولدوود أقول لك أن قدرك عاثر وسخيف لأنه يسير دائما وراء التدخل بين رجل وزوجته . وأنا ربما أكون شخصا سيئا ولكنى لست وضيعا بحيث أجعل مسألة زواج أو بؤس أية امرأة متعلقا بالنقود . لقد تركتنى فانى منذ فترة طويلة . ولا أعرف المكان الذى تعيش فيه الآن . ولقد بحثت عنها فى كل مكان . وطالما أننى قد أعطيتك درسا فى الحياة فاننى أعيد اليك نقودك !

وألقى بالنقود فى الحديقة فى ازدراء شديد .

فزار بولدوود فى غضب : أيها الشيطان ! ..

سأنزل بك العقاب ! أقسم أننى سأنزل بك العقاب فى يوم ما !

وانفجر تروى ضاحكا ثم اغلق الباب بالقفل من الداخل . وربما شوهد الهيكل الداكن لبولدوود يتجول طوال تلك الليلة فوق التلال مثل شبح يموج بالقلق والاضطراب . وفى صباح اليوم التالى اكتشفت القرية ان مزرعة وذربرى العليا قد أصبح لها سيد جديد .

الفصل السادس والعشرون

وذات ليلة فى نهاية شهر أغسطس وقف جبرييل أوك ساكنا فى فناء المزرعة العليا محملقا فى وجه القمر وفى السماء . كان الليل مليئا بالدلائل والعلامات الخطيرة . اذ هبت ريح دافئة من الجنوب وتلاطمت مع الأشجار . الا أن مستويات مختلفة من السحب كانت تطير فى اتجاهات مختلفة . وكان وجه القمر لدى رؤيته من خلال السحب ، له منظر معدنى غريب .

كان الرعد وشيك الوقوع . وكانت الدلائل الأخرى تشير الى أن الرعد سيعقبه مطر شديد . ففى

خلال اثنتى عشرة ساعة . سيكون جو موسم الحصاد قد ذهب . فنظر جبرييل فى قلق الى ثمانيـة أكوام كانت مكشوفة وغير محمية وكانت تمثل نصف انتاج المزرعة فى تلك السنة . وبعدئذ استمر فى السير الى مخزن الحبوب .

كانت تلك هى الليلة التى اختارها الرقيب تروى الذى أصبح يتولى زمام الأمور بدلا من زوجته للاحتفال بموسم الحصاد ، وتناول العشاء والخوض فى الرقص والابتهاج . وعندما اقترب جبرييـل تزايد سـماعه لصـوت الموسـيقى والرقص . وكان أحـد الأبواب الضـخمة مواربا فنظر الى الداخـل . كان الطـرف القريب من مخزن الحبوب مليئا حتى السقف بالقمح . اما باقى المساحة فقد أخليت ليتم فيهـا الرقص . وكانت هناك فرقة من العازفين تعزف فى جنون بينما العرق تصبب من وجوههم . وكانت باتشيبا واقفة عند الطرف البعيد ترقب المشـهد من خلف منضـدة مغطاة بالطعام والشراب والخمور . اما تروى فكان واقفا فى تراخ وخمول الى جوارها .

وعندما انتهى الرقص تجنب جبرييل باتشيبا الا أنه بعث برسالة الى الرقيب طالبا التحدث معه . وكان الرقيب فى تلك الآونة قد جلس خلف المنضدة ، وراح يحتسى الخمور فلم يوافق على مطلبه .

فقال جبرييل : لو سمحت أخبره أن المطر الشديد على وشك الهبوط مدرارا ، ولذلك ينبغى أن نفعل أى شىء لحماية أكوام القمح !

وجاء الرد : يقول لك المستر تروى أن السماء لن تمطر .. وأنه ليس لديه الوقت لمناقشة مثل تلك المخاوف السخيفة !

فقرر جبرييل الذهاب الى منزله لأنه لم يكن متشوقا لرؤية مظاهر الاحتفال فى شسونة الغلال . ولكن فى تلك اللحظة نهض تروى واقفا لالقاء كلمة **فقال :** أيها الأصدقاء .. ليست هذه حفلة عشاء من أجل الاحتفال بموسم الحصاد فقط ، وانما هى أيضا من أجل الاحتفال بزواجنا . ولكى يعود كل رجل الى بيته سعيدا فقد أمرت باحضار بعض زجاجات البراندى

والخمور الأخرى . وسيتم تسليم كل ضيف مشروبا روحيا قويا !

فوضعت باتشيبا يدها على ذراعه وتوسلت اليه :

ـ لا .. لا تقدم لهم مشروبات روحية أخرى . يا فرانك ! لأن ذلك يسبب لهم المتاعب الصحية . فهم قد حصلوا بالفعل على قدر كاف من الشراب والطعام والخمور .

وقال احد الرجال : هذا صحيح . فنحن لا نرغب فى المزيد من الخمور . وشكرا لك !

هنا قال الرقيب فى تانيب : كلام فارغ ! .

ورفع صوته معلنا فكرة جديدة : أيها الأصدقاء . لسوف نرسل النساء الى المنازل . فقد حان الوقت ليذهبن للفراش والنوم . ثم نقوم نحن الرجال بعمل احتفال مرح بأنفسنا . واذا خاف أى رجل من البقاء معنا ، فيمكنه أن يبحث لنفسه عن عمل فى مكان آخر لتأدية أعمال الشتاء !

فغادرت ياتشيبيا شونة الغلال فى ضيق وضجر وتبعها جميع الأطفال والنساء . وانسحب الموسيقيون والعازفون فى هدوء خارجين الى عربتهم وانطلقوا فى طريقهم . وظل جبرييل واقفا فى الشونة لبعض الوقت لكيلا يبدو وكأنه قليلا الذوق فى نظر الآخرين . وبعدئذ انسحب فى هدوء متبوعا بلعنة ودية من جانب الرقيب لأنه لم ينتظر لحين تناول جرعة أخرى من الخمور .

وعندما وصل جبريل الى المنزل كان قلقا للغاية لدرجة أنه لم يذهب الى سريره للنوم . وظل جالسا لفترة طويلة وقد راح فى تفكير عميق . ان فناء شونة الغلال ليس من اختصاص الراعى . فالراعى غير مسئول عنه . ولكن لم يكن هناك أى شخص آخر مسئول عن الغلال على ما يبدو . وهو بالتأكيد لا يمكن أن يكون مخطئا فى حكمه على الجو . فالسماء قد اظهرت دلائل التحذير ، بل وقد أظهرت ذلك أيضا جميع المخلوقات الوحشية فى الطبيعة .

ثم تذكر شيئا : ان سلوك الأغنام هو الدليل

الوحيد الواضح تماما الذى يدل على قرب حدوث العاصفة . فغادر منزله وهرول مخترقا ثلاثة حقول ثم نظر من فوق سياج الى قطيع أغنامه .

كانت الدلائل والبراهين واضحة : فالأغنام لم يبد عليها أى ذعر لدى ظهوره المفاجىء لأنها كانت تمر بالفعل بحالة من الذعر الشديد تفوق كثيرا مجرد الخوف من رجل . كما تلاحظ له أنها قد تزاحمت مع بعضها البعض على نحو معين بحيث كانت ذيولها تواجه الاتجاه الذى ستهب منه العاصفة .

وحينئذ ادرك جبرييل أنه على حق وأن تروى على خطأ . فعاد الى فناء الشونة حيث كان الكل فى صمت واكوام القمح تقف داكنة فى مواجهة السماء . ثمانية أكوام ! .. وطبقا لحساباته كانت تلك الأكوام بمثابة طعام للانسان والحيوان يقدر ثمنه بحوالى سبعمائة وخمسين جنيها . فهل يغامر ويتركها تتلف بسبب اهمال شخص ما آخر ؟ **وقال جبرييل لنفسه بصوت مسموع** : أبدا لن أتركها تتلف اذا كان باستطاعتى أن آمنعها من التلف !

وعاد الى الشونة طلبا للمساعدة . كان الكل صامتا فى الداخل . ولكن كان هناك ضوء خافت ما زال يسطع من خلال المدخل . فنظر الى داخل الشونة فشاهد منظرا غير عادى . كانت معظم الشموع قد احترقت حتى النهاية وانطفأت . بينما شموع أخرى كانت ما تزال تدخن وتقطر منها المواد المنصهرة على الأرض . وكان عمال المزرعة مستلقين وفاقدى الوعى تحت المنضدة أو عند أرجل الكراسى . وكان جان كوجان ملقى على ظهره وقد فتح فمه . أما جوزيف بورجراس فكان متكورا بجسده مثل القط .. وكانت نقط من الماء المسكوب ما زالت تتساقط من فوق المنضدة على رأس مارك كلارك . وكان الرقيب تروى يجلس بينهم جميعا . كان يجلس فى كرسى ملقيا ظهره للخلف .

ونظر جبرييل حوله فى يأس . وراح يهز ماتيو مون الذى يقوم عادة بعمل السقوف المصنوعة من القش على وجه السرعة . ولكن الهز لم يأت بنتيجة . فأسقط رأس ماتيو على الأرض . وقام بهز ليبان تول

ولكن دون جدوى أيضا . وكان يدرك أن اللوم لا يقع على هؤلاء الرجال الذين وصلوا الى هذه الحالة المخزيه لأن الرقيب تروى هو الذى أصر فى وحشية على أن يشربوا البراندى معه مما اضطرهم الى الموافقة على الرغم منهم . فهم منذ شبابهم لم يعتادوا على تناول شراب أقوى من السيدر أو البيرة . ولذلك كان من الطبيعى أن يتساقطوا هكذا فاقدى الوعى .

وشعر جبرييل بالحزن الشديد لدى رؤيتهم وقد انحدروا الى هذا الوضع . ثم قام باطفاء الشموع المتبقية لأنها من الممكن أن تؤدى الى اشعال الحرائق . وخرج وحيدا مرة أخرى الى الليل الموحش . اذا كان ينبغى انقاذ أكوام القمح فانه سيضطر الى انقاذها معتمدا على نفسه وعلى ساعديه ويديه !!!

الفصل السابع والعشرون

كانت الريح الجنوبية الدافئة ما زالت تهب . وكانت هناك سحابة سوداء ضخمة ترتفع فى جهة الشمال عندما قام جبرييل بجر أربعة أقمشة شراع ضخمة عبر الفناء . وسرعان ما تم تغطية كومتين عظيمتين من كنوز القمح فى أمان بعد أن وضع اثنين من هذه الأقمشة على كل كومة .. وأصبح الأمر يستلزم تغطية الكومتين الأخريين فراح يجمع كل القش والتجهيزات التى يحتاجها .

وظهر وميض من الضوء عبر السماء ، وامتلأ

الهواء بزئير بعيد . وكان ذلك بمثابة البادرة الأولى التى تدل على اقتراب حدوث العاصفة . وكان الانفجار الثانى للرعد صاخبا وان كان مصحوبا ببرق أقل .

وشاهد جبرييل شمعة تتلألأ فى غرفة نوم باتشيبا ومر ظل بسرعة عبر الستارة . وبعدئذ حدث وميض ثالث فاستطاع جبرييل الرؤية عبر الحقول لمسافة تبلغ ستة أميال على الأقل . اذ كان كل سياج وكل شجيرة وكل شجرة واضحا ، كما لو كان مرسوما بالقلم الرصاص على لوحة .

وراحت بعض الماشية الصغيرة تهيج هنا وهناك فى ذلك الجو المليء بالفوضى ، وتلقى بذيولها لأعلى فى الهواء ، وتميل برؤوسها نحو الأرض . وبعدئذ اختفت الصورة مخلفة وراءها ظلاما دامسا كاملا مما كان يضطر جبرييل الى العمل عن طريق التحسس بيديه .

وضرب البرق التالى الكتلة الحديدية المدببة التى كانت مغروزة فى السقف المصنوع من القش . وكان ذلك أمرا خطيرا . فأحضر سلسلة طويلة وثبت أحد

طرفيها فى الكتلة الحديدية وترك الطرف الآخر متدليا حتى الأرض لكى تصبح بمثابة موصل صواعق متصل بالأرض لوقاية المبانى من أخطارها . ثم شعر بعد ذلك بالأمن والأمان بعض الشىء .

وكشفت موجة البرق الخامسة عن سيدة واقفة فى الفناء .. **فقال جبريل مخاطبا الظلام** :

ـ هل أنت الواقفة هنا يا سيدتى ؟ اننى موجود هنا فوق السطح لمعالجة السطح القشى للكومة !

ـ أوه . يا جبريل . لقد أيقظتنى العاصفة . وخطر على ذهنى ضرورة القيام بعمل اى شىء لحماية القمح . وأنا الآن فى غاية القلق . هل باستطاعتنا انقاذ القمح ؟ اننى لم إعثر على زوجى . ولقد وعد بأنه سيرعى شئون أكوام القمح .. وها هى جميع الأكوام قد أهملت بدون رعاية . هل لى أن أساعدك ؟ ان ليدى خائفة ولا ترغب فى الخروج من المنزل !

ـ يمكنك ان تحضرى لى كومات من القش يا آنسة . كومة وراء كومة . اذا لم تكونى خائفة من

السلم فى الظلام . فكل لحظة لها قيمتها والوقت الآن من ذهب واذا فعلت ذلك ستوفرين على بعض الوقت . **فقالت فى شجاعة** : سأفعل أى شىء لانقاذ الموقف ! .

ووضعت كتلة من القش فوق كتفها وصعدت على السلم ثم هبطت لاحضار كومة أخرى . وومض البرق ودوى الرعد مرتين متعاقبتين ، ثم ساد الصمت لمدة أربع أو خمس دقائق فاعتقد جبريل أن أسوأ مراحل العاصفة قد انتهت . الا أن برقا فجائيا تفجر **فصاح قائلا** : « انتظرى . لا تتحركى » . وامسك بكتلة القش من فوق كتفها وامسك بذراعها .

وعندئذ فتحت أبواب السماء واصبح البرق شديدا وفجائيا وله طبيعة خطيرة على نحو لايصدقه العقل . ولم يشعرا الا بروعة وعظمة البرق وجماله الساحر . اذ كان البرق يتقافز من الشرق والشمال والجنوب وكان بمثابة رقصة موت متقنة . كانت أشكال الرجال الموتى تظهر فى الهواء وقد تشكلت

باللون الأزرق الذى يدل على العظام .. وكانت تتراقص وترقص وتتسابق فيما حولها فى فوضى وارتباك .. مع تعابين من النار الحمراء التى تتشابك وتتداخل وتلف وتدور بينها . وقد استقرت احداها فوق قمة القضيب الحديدى الذى وضعه جبرييل ثم جرت لأسفل على نحو غير مرئى ثم لأسفل السلسلة نحو الأرض . وانشقت شجرة طويلة لاتبعد كثيرا عنها ثم اشتعلت بالنيران وفى نفس الوقت صدرت صيحة رعدية من كل جزء من أجزاء السماء الهاوية المتحطمة.

وكاد جبرييل يفقد الابصار وكان باستطاعته الشعور بذراع باتشيبا يرتعد فى يده .. احساس مثير ، الا أن الحب والحياة وكل ما هو انسانى قد بدا ضئيلا وتافها فى مواجهة مثل هذا الكون المجنون . **وقال على وجه السرعة** : لقد كدنا نموت ونهلك . من الأفضل أن نهبط وننزل الى الأرض .

ولم تتكلم باتشيبا . ولكنه كان يشعر بأنفاسها تتلاحق بسرعة وتبعها هابطا من فوق قمة

الكومة . **وقال** : يبدو أن العاصفة قد توقفت الآن . وذلك بعد أن وقفا للحظات قليلة فى صمت . **واستطرد قائلا** : اننى لا أعرف السبب فى أن الدنيا لم تمطر رغم كل هذا الرغد والمواصف ولكن هذا كان فى صالحنا . ساصعد مرة أخرى فوق الكومة .

— يا جبرييل . اننى لا أستحق كل هذا العطف الذى تشملنى به .. ولكن لماذا لم يحضر الآخرون الى هنا .. ؟

ثم لاحت بذهنها فكرة فجائية **فصاحت** : آه . أنا أعرف السبب . فهم جميعا غارقون فى نوم عميق فى الشونة .. نوم عميق ناجم عن كثرة تناول الخمور . وزوجى نائم بينهم . وهذا هو السبب . أليس كذلك ؟!

فقال جبرييل : « لست متأكدا من ذلك » . ثم ذهب الى الشونة ونظر من خلال شرخ فى الباب ليرى ما اذا كانوا لايزالون هناك . كان الجميع غارقين فى

الظلام الا أنه تمكن من سماع أصوات تنفسهم العميق. ثم سمع تنفسا عاليا بجواره . لقد تبعته باتشسيبا وراحت تنظر من خلال نفس الشرخ .

وبينما كانا عائدين للاستمرار فى تدعيم السقف بمزيد من القش قالت فجأة بصوت رزين : هل كنت تعتقد أننى قد انطلقت بالعربة الى باث فى تلك الليلة لكى أتزوج ؟!

فاجاب : لقد اعتقدت ذلك فيما بعد .. ولم أعتقد ذلك فى بادىء الأمر .

وقد أدهشه أنها غيرت مجرى الحديث لدى القائها بهذا التساؤل .

ـ لقد اعتقدت أنك تصورت أننى ذهبت لكى أتزوج . ولكن الحقيقة ليست كذلك . فالأمور قد تطورت بسرعة وحدثت أمور عقب وصولى الى باث مما أدى الى زواجى . اذ قال لى أنه قد تقابل توا مع امرأة أكثر منى جمالا ، وأنه ربما يتحول فى حبه الى

تلك المرأة الأخرى اذا لم أصبح زوجة له فى الحال . فاصابنى القلق الشديد . وبعدئذ اخترت أن أتزوجه لكى أنقذ نفسى من الغيرة والهم والقلق الشديد !

ولم يرد جبرييل عليها .

ـ والآن لا أرغب فى سماع كلمة واحدة منك تتعلق بهذا الموضوع . بل اننى فى الواقع أصدر لك تعليمات صريحة بعدم التطرق الى هذا الموضوع . أتريد المزيد من القش ؟ .

واستمر العمل فى اصرار ولكنها بدأت تشعر بالتعب وسرعان ما نصحها جبرييل بالرجوع الى منزلها فشكرته جزيل الشكر على كافة جهوده الحميدة واختفت متوارية بين طيات الظلام . واستمر جبرييل فى انجاز العمل كأنه يمر بحلم مريع وتعجب فى حيرة من سر قلب تلك الأنثى الذى جعلها تتحدث معه فى دفء وحرارة وعاطفة فى هذه الليلة على نحو لم يحدث من قبل أثناء حياتها قبل زواجها .

وبينما كان الصباح آخذا فى البزوغ اشتدت

برودة وسرعة الهواء • وفى خلال عشر دقائق انطلقت جميع الرياح المحبوسة فى السماء وهبطت الأمطار الغزيرة فى حماس شديد وأحس جبرييل بالمطر ينهمر فى داخل ملابسه ، وبعد مرور ساعتين انتهى أخيرا من تدعيم آخر كومة •

وهبط الى الأرض مبللا ومرهقا وحزينا ومكتئبا ولكنه شعر بالارتياح لنجاحه فى مهمته • وفى تلك اللحظة ترامت الى سمعه أصوات خافتة قادمة من الشونة ثم خرجت من الباب هياكل تسير فى ترنح وبدت عليها مشاعر الخجل باستثناء شخص واحد كان يرتدى سترة حمراء اللون ، وكان يسير وهو يضع يديه فى جيبه ويترنم بالصفير بفمه •

بينما كان جبرييل عائدا الى منزله تقابل مع المزارع بولدوود فتبادلا التحية •

وقال جبرييل : لقد ظللت أعمل طوال الليل لكي أغطى أكوام القمح عندنا بالقش للحماية من

المطر • هل أكوام القمح الخاصة بك ياسيدى محمية وفى أمان ؟

ـ « أوه • نعم » •

ولكن بولدوود اضاف بعد لحظات من الصمت : عما كنت تتساءل يا أوك ؟ •

ـ هل أكوام القمح الخاصة بك مغطاة بالفعل ؟ اذ ينبغى تغطية الأكوام الكبيرة الموجودة فى الفناء بأية طريقة !

ـ لا انها ليست مغطاة • ولا كوم واحد منها مغطى • فقد نسيت أن اصدر تعليماتى للحطاب بعمل ذلك •

فقال جبرييل : هذا معناه أن أقل من ١٠٪ من القمح الموجود عندك سيكون صالحا للاستعمال يا سيدى !

وشعر جبرييل بالذهول لأن بولدوود قد «نسى» محصوله من القمح على ذلك النحو • فهو ليس

بالرجل الذى ينسى مثل هذه الأمور الهامة ٠ ولابد أن هذا الرجل بدأ يقاسى من زواج باتشيبا من رجل آخر ، ولابد أن معاناته فى هذا الصدد أعنف بكثير من معاناة جبرييل ٠

وقال بولدوود على نحو يوحى بأنه يأتمن جبرييل على حفظ الأسرار « يا أوك » أنت تعرف أن الأمور قد ساءت معى تماما فى الآونة الأخيرة ٠ والناس يقولون أن الآنسة افردين قد فسخت خطوبتها معى ٠ وهذا القول بعيد عن الحقيقة ٠ فهى لم تعدنى بالزواج على الاطـلاق ٠

ووقف ساكنا ثم التفت فى وحشية نحو جبرييل **واستطرد :** أوه ٠ يا جبرييل ٠ اننى أشعر بالضعف والغبـــاء ٠ ولا ســـبيل أمامى للهـرب من البؤس المحدق بى ؟ ٠٠ لقد كان لدى بعض الاعتقاد الواهن فى رحمة الله الى أن فقدت تلك المرأة ٠ والآن أشعر أنه من الأفضل لى أن أموت ٠ فأنا الآن أفضل الموت على الحياة آ

الفصل الثامن والعشرون

يقع تل يالبرى على الطريق ما بين كاستربردج ووذربرى ٠٠ والفلاحون العائدون من السوق عادة ما ينزلون من عرباتهم ، ويسيرون بجانب خيولهم على الطريق الصاعد الطويل ٠

وفى أحد أيام السبت من شهر أكتوبر كانت عـربة باتشـيبا تزحف صـــاعدة فوق ذلك الطريق المنحدر ، وكانت تجلس فى مقعد المسافرين بالعربة بينما كان تروى يسـير على الأرض بجوارها مرتديـا حلة غريبة الشكل ٠

وكان يقول : لولا حدوث ذلك المطر لكنت قد ربحت مبلغا كبيرا من المال · فأنا لم يحدث فى حياتى أن شاهدت مثل ذلك اليوم العاصف الوحشى · فالخيول والراكبون والناس كانت الرياح تتقاذفهم هنا وهناك مثل السفن المائجة فى عرض البحر ، والرأى الذى سرت عليه فى مراهناتى كان عديم الفائدة تماما ·

فقالت باتشيبا فى حزن : أنت خسرت ما يزيد على مائة جنيه خلال هذا الشهر بسبب دخولك فى مراهنات سباق الخيول الشنيعة · أوه يا فرانك انه لمن القسوة أن تضيع نقودى على هذا النحو · ولسوف نضطر الى ترك المزرعة · وتلك ستكون النهاية · هل يمكنك أن تعدنى بعدم الذهاب الى سباق الخيول فى اللقاء التالى ؟

ـ لماذا ؟ ·· اننى أفكر فى اصطحابك معى · ولكن حضورك لن يغير من الأمر شيئا · لأن مراهناتى قد حددت كلها بالفعل · لقد فقدت كل الحماس

يا باتشيبا ·· ولو كنت قد عرفت ان لك قلبا جبانا يستتر وراء شجاعتك لما كنت أبدا ··· ···

وأضاء وميض من الغضب عينى باتشيبا السوداوين لدى سماعها ذلك التعليق وتلك العبارة التى لم تكتمل · ولكن فى تلك اللحظة ظهرت امرأة فوق قمة التل · ورغم أن الأشجار العالية بأوراقها وأغصانها المتدلية قد حجبت الضوء الخافت المتلاشى ، الا ان باتشيبا تمكنت من مشاهدة ملابسها المتواضعة التى تدل على فقرها الشديد والحزن الشديد الذى يطل من وجهها عندما اقتربت منهما ·

ـ لو سمحت يا سيدى هل تعرف الوقت الذى تغلق فيه اصلاحية الأحداث أبوابها ليلا ؟

وأحدثت نبرات صوتها صدمة فى كيان تروى الا أنه استعاد توازنه وتحكم فى مشاعره لكى يمنع نفسه من الاستدارة نحوها · **وقال لها فى بطء :** لا أعرف !

وما ان سمعت المرأة صوته حتى نظرت بسرعة

لأعلى وتفحصت جانب وجهه وعرفتـــه تماما ، فهو نفس الجندى ولكنه يرتدى ملابس الفلاحين · وظهرت تعبيرات على وجهها تجمع ما بين البهجة والآلام الهائلة المريرة وصرخت صرخة هائلة وسقطت على الأرض مغشيا عليها ·

فصاحت باتشيبا : ياللها من انسانة مسكينة ! وبدأت تستعد للنزول من العربة ·

فقال تروى فى وحشية : عليك بالبقاء فى مكانك وخذى بالك من الحصان !

واستطرد صائحا عندما ترددت باتشيبا فى تنفيذ أوامره : واصعدى بالعربة فوق الطريق المنحدر ·· وأنا سأتدبر أمر هذه السيدة !

وبعد أن سارت باتشيبا بالعربة استدار نحو المرأة **وقال بصوت غريب وهو يرفعها من الأرض ·**

ـ كيف تمكنت بحق السماء من المجيىء الى

هنا ؟ لقد اعتقدت أنك ذهبت الى مكان بعيد للغاية أو انتقلت الى رحمة الله · ولماذا لم تكتبى لى رسائل ؟

ـ كنت أخاف من ارسال الخطابات ·

ـ هل لديك أية نقود ؟ لا ، هاهو كل المبلغ الموجود معى الآن ·· وكنت أتمنى أن يكون معى مبلغ كبير لكى أقدمه لك ·· اننى فى عجلة من أمرى الآن · استمعى الى · هل ستذهبين الى اصلاحية الأحداث الموجودة فى كاستربردج ؟ اقضى الليلة هناك وامكثى هناك غدا · وفى صباح يوم الاثنين وفى تمام الساعة العاشرة قابلينى فوق كوبرى جراى الموجود خارج المدينة مباشرة · ولسوف أحضر لك كل النقود التى أستطيع الحصول عليها · فانا لن اتخلى عنك يا فانى ·· لن أتركك تعانين من العوز والفقر وأنا أعدك بذلك · ولسوف أستأجر لك مسكنا فى مكان ما · ومع السلامة الآن الى أن نلتقى فى الموعد المحدد · انه لمن القسوة ان أتخلى عنك ·· ولكن مع السلامة !

وعندما أسرع فى مشيته ولحق بباتشيبا عند

قمة التل **نظرت بحدة فى وجهه وتساءلت:** هل تعرف من كانت هذه المرأة ؟

فقال وهو ينظر فى عينيها فى جراة : نعم اعرفها ولكنها لا تمثل شيئا بالنسبة لنا · فأنا اعرفها معرفة سطحية ·· اعرفها عندما يقع بصرى عليها ·

ـ ما أسمها ؟ أعتقد انك تعرف اسمها ؟

ـ لا يهمنى ما تعتقدينه · يمكنك ···

واستكمل العبارة بأن هبط بضربة سوط حادة على ظهر الحصان مما جعله يقفز فجاة للأمام · ثم ساد الصمت بينهما ·

وفى تلك الأثناء استمرت المرأة فى سيرها الى ان اصبحت لا تقوى على المسير على الاطلاق · فقامت بفتح بوابة ودخلت فى احدى كومات القش واستغرقت فى نوم عميق · وعندما استيقظت أدركت أن الليل حالك السواد حيث لا يوجد أى ضوء للقمر او النجوم·

الا أنها شاهدت أضواء كاستربردج تسطع فى خفوت على مسافة بعيدة ·

فقالت لنفسها : آمل أن اتمكن من الوصول الى هناك · اذ ينبغى على أن اقابله يوم الاثنين · فليساعدنى الله ! ·· فلربما أكون مدفونة فى قبرى قبل حلول ذلك الموعد !

وراحت تكافح وتناضل · ولم يكن من المتوقع لها أن تصل الى المدينة على الاطلاق لولا ظهور كلب كبير ضال انضم اليها فى المسير ، وشجعها على مواصلة السير · وكان يلعق يدها ويقودها فى طريقها نحو المدينة · وعندما خرت واقعة على الأرض بسبب الاعياء الشديد ، راح الكلب يجذب ويشد رداءها · وأخيرا شاهدت الجدران الحجرية لاصلاحية الأحداث تبزغ من بين طيات الظلام الموجودة أمامها · وبجهود خارقة وصلت الى باب الاصلاحية وجذبت حبل الجرس · ثم سقطت على وجهها فوق الأرض !

وعندما وصلت الساعة الى حوالى السادسة

صباحا فتح الباب وظهر رجل · فشـاهد كومة من الملابس تتحرك فى كفاح مرير ، فرجع لاحضار مصباح وعاد ومعه امرأتان · وقاموا برفع المرأة من فوق الأرض وساعدوها وأدخلوها من باب الاصلاحيه ·

وتساءلت احدى المرأتين : كيف تمكنت هى من الوصول الى هنا ؟

فردت فانى بصوت ضعيف للغاية : كان هناك كلب ·· ولقد ساعدنى هذا الكلب · الى أين ذهب الكلب ؟

فقال الرجل : لقد طردته بأن القيت عليه حجرا !

الفصل التاسع والعشرون

وفى اليوم التالى لم يتحدث باتشيبا وتروى مع بعضهما البعض الا بقدر ضئيل للغاية · ولكنه طلب منها فى مساء ذلك اليوم أن تعطيه عشرين جنيها ·

فردت عليه فى حزن : عشرون جنيها ؟ ·· من أجل سباق الخيول الذى سيجرى غدا ؟ ·· يا فرانك · لقد قلت لى منذ أسابيع قليلة أننى افضل عندك من جميع مباهجك وهواياتك وملذاتك الخاصة ·· الن تتخلى عن السباق فى هذه المرة ؟ ·· من أجلى ؟ ··

أترك يا فرانك هذه المراهنات • ووافق على رأى بمطالبك الغامضة يا فرانك !

وكانت تبدى له أقصى ما لديها من جوانب الرقة ، فقرر أن يريح ذهنها بشأن هذه النقطة **فقال لها** : اننى لا أريد هذه النقود من أجل المراهنة !

ـ اذن لأى شىء تريد هذه النقود ؟ فأنت تقلقنى بمطالبك الغامضة يا فرانك !

فتردد تروى • ولم يكن يرغب فى ذكر الحقيقة لها •

فقال لها : انك تسيئين الى بسبب هذه الشكوك التى تبدينها !

فقال فى ابتسامة باهتة : لكى أدفع النقود يكون لدى الحق فى توجيه بعض الأسئلة القليلة •• ولكننى لدى هنا عشرون جنيها من أجل النفقات على شئون المنزل • فاذا كان الأمر يستلزم ضرورة حصولك على هذا المبلغ فلا مانع عندى •

ـ شكرا جزيلا لك • ولسوف أخرج من المنزل مبكرا فى صباح الغد وقبل مجيئك لتناول طعام الافطار •

ونظر الى ساعته أثناء الكلام • ثم فتح علبة الساعة بدون تفكير • وعندئذ شاهدت باتشيبا كتلة صغيرة من الشعر مخبأة فى داخل العلبة •

فتساءلت فى دهشة وحب استطلاع : أوه • فرانك ! شعر من هذا ؟

وهنا أغلق تروى علبة الساعة على الفور **وقال** :
ـ انه شعرك بالطبع !

فصاحت باتشيبا : يا لها من كذبة ! يا فرانك انه شعر أصفر اللون ! •• شعر من هذا ؟ • أود أن أعرف الحقيقة !

ـ حسنا •• سأقول لك الحقيقة • انه شعر فتاة شابة كنت على وشك الزواج منها قبل أن أتقابل معك • ولن أقول لك اسمها •

— وهل هي تزوجت ؟

— لا .

— وهل هي جميلة ؟ .. انها لا يمكن أن تكون جميلة اذا كان لها شعر ذو لون رهيب على ذلك النحو . ينبغي عليك أن تحرق ذلك الشعر يا فرانك . هل ستحرقه ؟

فقال تروى : لماذا ؟ انه شعر جميل . لا تكوني غيورة الى هذه الدرجة يا باتشيبا . لقد كنت تدركين أبعاد الحياة الزوجية . وما كان ينبغي عليك أن تدخلي في الحياة الزوجية اذا كنت تخافين من مجرد اكتشاف شيء فجائي مثل هذا الشعر . فهناك اعتبارات تجيء في المرتبة الاولى . وتفوق في أهميتها مشاعري نحوك . فأنا لدى ديون شرف ناجمة عن لعب القمار .. ولدى ارتباطات لا تعرفين عنها شيئا . فاذا كنت تأسفين الآن على الزواج مني فأنا أشعر كذلك بالأسف على هذا الزواج !!

فدبت القشعريرة في كيان باتشيبا ووضعت

يدها على ذراعه بصوت يجمع بين البؤس والاقناع : انني أشعر بالأسف اذا كنت لا تحبني أكثر من أية امرأة أخرى في العالم بأسره . أنت لا تريد أن تحرق تلك الخصلة من الشعر . وهذا معناه أنك ما زلت معجبا بصاحبة ذلك الشعر الجميل . نعم انه شعر جميل .. وأجمل من شعري أنا . حسنا . لا دخل لي لكوني قبيحة المنظر . ما باليد حيلة .. ويجب عليك أن تحبها أكثر مني اذا كنت ترغب في ذلك .

وتوقفت للحظات ثم استطردت متسائلة : ومن هي تلك المرأة التي قابلناها على الطريق ؟ .. فذلك الشعر هو شعرها . أليس كذلك ؟

— نعم . وأنت الآن تعرفين السر الخاص بي . وآمل أن تكوني الآن مستريحة وراضية !

فقالت وهي تنظر في وجهه بدون خوف : وما هي تلك الارتباطات والروابط التي ذكرتها ؟ .. قل لي الحقيقة الكاملة يا فرانك .. انا لست مغفلة أو غبية رغم انني امرأة . هيا وتعامل معي في صدق وامانة !

أريد العدالة المجردة وذلك هو كل ما أريده فانا فى يوم ما كنت أريد أن أكون زوجة لرجل يعاملنى كأننى ملكة متوجة • والآن أصبحت قانعة باى شيء باستثناء ممارسة القسوة على • نعم فباتشيبا المتفاخرة القوية الشخصية قد هبطت بشخصيتها الى هذا الحد !

فقال تروى بصـــوت غاضب : بحق السـماء لا تتكلمى معى بمثل هذا العنف والوحشية ! ثم نهض واقفا وغادر الحجرة ••

وفى صباح اليوم التالى استيقظت باتشيبا من النوم مبكرة أكثر من الوقت الذى اعتادت ان تتفقد فيه المزرعة وهى ممتطية حصانها • وكان تروى قد انطلق ذاهبا الى كاستربردج • وتناولت هى طعـام الافطار وحدها • وبعدئذ أخذت تتجول وقد اعتزمت أن تتنزه سيرا على الأقـدام • وفى تلك اللحظة ظهر جـوزيف بورجراس عند البوابة حاملا معه سلة مليئة بالتفاح وعندما شاهدها وضع سلة التفاح على الأرض **وقال لها فى حزن عبر البوابة :**

ـ لن تشاهدى فانى روبين مرة أخرى يا سيدتى• فهى ترقد الآن ميتة فى اصـــــلاحية الأحـداث فى كاستربردج !

ـ فانى قد ماتت ؟ مستحيل ! وما هو سبب وفاتها ؟

ـ لا أدرى •• فهى طوال حياتها كانت فتاة ضعيفة البنيان • وقد دخلت اصـلاحية الأحداث فى صباح الأمس • وكانت مريضة للغاية • وكانت فى حالة من الاعياء الشديد حتى أنها ماتت فى مساء نفس اليوم • وهم يقولون أنها انطفأت مثل الشمعة • وهى وفقا للقانون تنتمى للأبرشية الخاصـــة بنا ولذلك سيقوم المستر بولدوود بارسال عربة لاحضار جثمانها ولسوف يتم دفنها فى فناء كنيستنا فى الساعة الخامسة !

ـ لن أدع المستر بولدوود يقوم بمثل هـــذه الاجراءات • اذهب اليــه وقل له أن السيدة زوجة تروى ستقوم بمهمة احضار جثمان الخادمة التى كانت تعمل فى خـدمة أسرتهـا • ثم جهز عربتى الجديدة

الصغيرة ذات الجسم الأزرق والعجلات الحمراء . واذهب بنفسك فى تلك العربة . وخذ معك مجموعات كبيرة من الورد والزهور لكى توضع على نعشها وعلى قبرها .

– سأفعل ذلك يا سيدتى !

وقالت بعد تفكير عميق : يا ليتنى قد علمت فى وقت مبكر بدخول فانى اصلاحية الأحداث . منذ متى دخلت الاصلاحية ؟

– منذ الأمس فقط . وهم يقولون أنها عندما هربت من هنا وتركتنا ذهبت لتعيش بالقرب من ثكنات خاصة بالجيش . وبعد ذلك التحقت بالعمل فى ميلشستر . ومن المعتقد أنها سارت على طول المسافة من هناك الى الاصلاحية .

وهنا شحب وجه باتشيبا فجأة . ثم رجعت الى منزلها **ونادت على ليدى** : لقد كان حبيب فانى جنديا . أليس كذلك ؟

– نعم . لقد كان جنديا فى سلاح الفرسان الملكى

الحادى عشر مع المستر تروى . وكان المستر تروى يعرفه جيدا . اذ قال أنه كان يحبه أكثر من أى رجل آخر فى الجيش . بل وقال أنه كان هناك تشابه كبير بينه وبين ذلك الشاب الآخر لدرجة أن ...

فقاطعتها باتشيبا وقد انتابها ذلك الضيق العصبى الذى ينجم عن الاعياء والشك :

– كفى عن الكلام بحق السماء يا ليدى !

الفصل الثلاثون

وعندما دقت الساعة الثالثة وصــــل جوزيف بورجراس الى اصلاحية الأحداث ودق الجرس • ففتح الباب • وقام رجلان بوضـع النعش الخشبى البسيط فى العربة • ثم قام أحدهمـا بكتابة اســم فانى على النعش بالاضافة الى كتابة بعض الكلمــات الأخرى بقطعة من الطباشير • ونثر جوزيف أزهــاره فــوق النعش وانطلق على الطريق عائدا الى وذربرى •

وقبل أن يقطع نصف المسافة فى طريق العودة الى وذربرى ظهرت سحب كثيفة من الضباب البحرى وراحت تتدحرج فوق التلال • وما آن وصل الى غابة

يالبرى حتى أطبق عليه الضباب من كل جانب تماما • وكان الصمت المخيف المريع يرفرف فــوق كل شئ فتمنى لو كان معه رفيق •• حتى ولو كان ذلك الرفيق مجرد طفل أو كلب • ولكن حانة فندق رأس الغزال كانت تقع على مسافة قريبة منه الى ما وراء الغابة • وسرعان ما شـــاهد لافتة الحانة ، فأوقف حصــانه ودخل • وحيته الوجوه البشوشة لكل من جان كوجان ومارك كلارك •

فقال : أريد تناول مجرد مشروب واحد وبعدئذ سأواصـــل المسير • فقد أحضرت معى فانى روبين المسكينة فى العربة الموجودة بالخارج ، وينبغى على أن أصل الى بوابات فناء الكنيسة فى تمام الساعة الخامسة الا ربعا !

فقال مارك كلارك : هذا هو ما سمعناه • ولكن فيما العجلة ؟ •• يمكنك أن تجلس وتستريح وتشرب ما تريد بدون تسرع •

فاقتنع جوزيف بذلك القول وجلس مطمئنـا •

وبعد أن تنــاول مشروبه الثانى **قال** : ينبغى على ان أواصل السير الآن !

ولكنه أقنع بالبقاء لتناول مشروب ثالث . وبعد أن فرغ من تناول مشروبه الثالث نهض واقفا **وقال** : سيكون كاهن الكنيسة واقفا فى انتظارى .

ولكن جان كوجان قال : يا جوزيف لا تشـعر بالتعاسة على هذا النحو . فالكاهن لن يتضايق بسبب انتظاره اياك . فهـو رجل شـفوق القلب . اجلس يا رجل !

فجلس جوزيف . وكلما ظل جالسا لفترة أطول أحس اقل بتأنيب الضمير .

وتوالت الثوانى والدقائق . وتعمقت الظلال . وعندما دقت سـاعة الحانة معلنة السـاعة السادسـة سمعوا وقع اقدام مسرعة بالخارج . ثم دخل **جبرييل** أوك الى الحانة . **وقال جبرييل فى حـدة ووحشية :** اننى أشـعر بالخجل بسبب تصرفاتك يا جوزيف

بورجراس . وأنت يا جان وأنت يا مارك . كان ينبغى عليكما أن تقدرا الموقف بشكل أفضل !

الا أنه لاحظ على الفور أن كلامه لم يؤد الى النتيجة المرجوة حيث كان الرجال الثلاثة فى حالة لا تسمح لهم بقيادة العربة .

وعندما وصل جبرييل الى وذربرى مع الجثمان ، كانت الدنيا قد اظلمت تماما فقرر الكاهن تأجيل مراسم الدفن الى اليوم التالى . وكانت باتشيبا تريد فى بادئ الأمر ترك الجثمان فى الكنيسة الا أنها غيرت رأيها ، وأمرت بنقل الجثمان الى داخل المنزل . فقام جبرييل بمساعدة ثلاثة من الرجال بوضع الجثمان على منضدة فى غرفة الطعام .

وعندما انصرف الرجال الثلاثة ظل هو واقفا هناك فى تردد وراح ينظر الى الكلمات المكتوبة بالطباشير على غطاء النعش : **فانى روبين وطفل** . فقام بمحاولة أخيرة لانقاذ باتشيبا من التعرض للأحزان

والآلام الفورية حيث راح يمسح بمنديله الكلمات وكلمة طفل ، ثم غادر المنزل فى هدوء ·

وفى وقت متأخر من ذلك المساء دخلت ليدى الى غرفة الجلوس **وتساءلت** : هل تريدين منى أن أظل منتظرة لحين عودة سيدى ؟ فأنا لست خائفة من جثمان فانى · فهى كانت تشبه الطفلة حتى آن شبحها لن يسبب المتاعب لأى شخص · وأنا واثقة من ذلك !

فقال باتشيبا : أوه · لا داعى لذلك · اذهبى أنت للنوم يا ليدى · ولسوف أظل مستيقظة حتى الساعة الثانية عشر فى انتظار المستر تروى · فاذا لم يصل بحلول الساعة الثانية عشر سأذهب للفراش للنوم ·

ثم اضافت فى همس ممزوج بالاضطراب : هل سمعت أى كلام غريب عن فانى ؟

وما أن تساءلت بهذا السؤال حتى انفجرت باكية بالدموع ·

فقالت ليدى وهى تنظر اليها فى دهشة : لا ·· ولا كلمة واحدة · وما الذى يجعلك تبكين على هذا النحو ؟ · هل هناك أى شىء يؤذى مشاعرك ؟

ولكن باتشيبا لم توضح السبب الذى أدى الى انفجارها بالبكاء · فذهبت ليدى الى سريرها · ثم عادت مرة أخرى بعد عشر دقائق **وقالت على وجه السرعة** ·

ـ لقد سمعت ماريان كلاما عجيبا · انها قصة خسيسة تفيد أن ···

ثم أفضت فى همس بباقى العبارة فى أذن سيدتها · وعندئذ ارتعدت باتشيبا من رأسها الى اخمص قدميها **وصاحت** : لا أصدق هذا الكلام ! ولا يوجد سوى اسم واحد مكتوب على غطاء النعش ·

ثم استدارت لتخفى وجهها فغادرت ليدى الغرفة فى هدوء شديد ·

وراحت باتشيبا تمعن النظر فى النيران لبعض

الوقت . **ثم قالت فجاة بصوت مرتفع** : أوه يا فانى
يا ليتك قد تكلمت معى وافضيت لى بسرك ! لو كان
باستطاعتى النظر اليك لدقيقة واحدة قصيرة لعرفت
كل شىء !

ومرت لحظات قليلة ثم اضافت فى بطء : سأفعل
ذلك .

ثم أحضرت مفكا وسرعان ما اصبحت واقفة بجوار
النعش المكشوف **فقالت لنفسها** : كان من الأفضل
معرفة أسوأ الأمور . وأنا أعرف الحقيقة الآن !

وبينما كانت واقفة هنالك ارتعد جسدها وغطى
الضباب على عينيها وشعرت وكان مطرقة تدق ذهنها
وقالت : أوه . اننى أكرهها ! .. ومع كل فانه من
الخسة والنذالة أن أكرهها . لو كانت قد عاشت
لكنت قد أصبحت غاضبة منها وقاسية عليها ، ولكننى
اذا عاملت امرأة ميتة على هذا النحو فكأننى أعاقب
نفسى . يا الهى . الرحمه يا الهى !

وحدث **اضطراب عقل** شديد لباتشيبا حتى انها
راحت تبحث عن وسيلة للهرب . ثم ركعت بجوار
النعش وظلت الحجرة ساكنة فى صمت لبعض الوقت .
وبعدئذ نهضت واقفة ثم راحت تنثر الورد حول رأس
الفتاة الميتة كدليل على مشاعر العفو والتسامح .
وفقدت الاحساس بالزمان والمكان والاحساس بما كانت
تفعله . واخيرا فتح الباب الأمامى واغلق فى صوت
مرتفع ، فعاد اليها الوعى والادراك . وسمعت وقع
اقدام ، ثم ظهر زوجها فى المدخل وحملق فى دهشة فى
المنظر الماثل أمامه . ولم يخطر على باله مطلقا موضوع
فانى . وخطر على ذهنه لأول وهلة ان شخصا ما
بالمنزل قد مات .

فقال وقد بدا عليه انه لا يعرف اية اخبار :
حسن .. ماذا حدث . استحلفك بالله أن تقولى لى
من ذا الذى مات ؟

فقالت باتشيبا بسرعة : يجب ان أذهب الآن !
وحاولت أن تدفعه لتمر من جواره ولكنه أمسك

يدها واقترب من النعش وهو ما زال ممسكا يدها . فشاهد شمعة تلقى بالضـوء الخافت على الوجهين الباردين لامرأة وطفلها . فامعن النظر وترك يد زوجته ووقف ساكنا دون حراك . ثم انحنى فى بطء فوق جسد فانى روبين وقبلها فى رفق كما لو كان يقبل طفلة نائمة !

وما أن شاهدت باتشيبا وسمعت هذا المشهد حتى فقدت السيطرة على نفسها فألقت بذراعيها حول رقبته **وصاحت فى جنون** : لا . لا تقبلها ! أوه يا فرانك . لا أستطيع تحمل ذلك ! اننى أحبك أكثر من حبها لك ! قبلنى أنا أيضا يا فرانك . قبلنى ! لسوف تقبلنى بالتأكيد يا فرانك . قبلنى أنا أيضا !

وفك تروى ذراعيها من حول رقبته ونظر اليها فى دهشة بالغة . **وقال وهو يدفعها بعيدا عنه** : لن اقبلك . لقد كنت رجلا سيئا أسود القلب ولكن هذه المرأة تهمنى أكثر منك ، حتى وهى غارقة فى موتها ، وهى أفضل منك فى الماضى والحاضر والمستقبل ..

ولو لم اقع فريسة للشيطان الذى أغوانى عندما شاهدت وجهك لكنت قد تزوجتها . **وياليتنى قد** تزوجتها . ولكن فات أوان ذلك الآن .. وأنا استحق الحرق فى جهنم على جريمتى هذه !

ثم استدار نحو فانى **وقال لها** : ولا يهمك يا أعز حبيبة لدى . فأنت زوجتى الحقيقية أمام الله !

وما أن سمعت باتشيبا ذلك الكلام حتى صدرت عن شفتيها صرخة طويلة باهتة فى يأس لا نهائى **وهى تقول له** : اذا كانت هى على ذلك النحو فمن أكون أنا ؟

فقال تروى فى قسوة : أنت لا شىء بالنسبة لى .. لا شىء بالمرة . فالمراسم التى تتم أمام القسيس لا تعقد زواجا . فأنا لست زوجك من الناحية الأخلاقية والمعنوية !

وعندئذ شعرت باتشيبا أن لديها الرغبة الملحة فى الهروب منه ومن كلماته . فاستدارت نحو الباب وخرجت الى غياهب الليل الحالك .

وسارت لبعض الوقت فى الحارة المظلمة الى أن

وصلت الى بوابة تؤدى الى غابة صغيرة . فدخلت الى الغـابة وعثرت على مكان محمى بين بعض الشجيرات فهبطت على الأرض واغلقت عينيها .

وكان أول صوت تسمعه لدى استيقاظها هو تغريد طائر واقف فوق غصن أعلاها . ثم ترامى اليها من الطريق صوت أغنية مرحة يتغنى بها صبى يقود خيل الحراثة . ثم سمعت بعد ذلك وقع أقدام ثقيلة . وعندما نظرت من خلال الشجيرات شاهدت اثنين من خيولها يتوقفان لشرب الماء من بركة ماء عند جانب الطريق .

كانت تباشير الصباح قد بدأت تظهر لتوها وكان ضباب الصباح معلقا فوق الحقول .

وظهرت خطوات أخرى . وكان السائر على الطريق فى هذه المرة تلميذا قد علق فى كتفه حقيبة غدائه وأمسك فى يده كتابا . ومر هو الآخر فى طريقه الى مدرسته . ثم ظهرت امرأة من على مسافة فشعرت باتشيبا بالارتياح عندما تبين لها بعد لحظات أن تلك

المرأة هى ليدى سمولبرى وخرجت من الغابة لالقاء التحية عليها .

وقالت أو حاولت أن تقول حيث قد فقدت صوتها بسبب الاستلقاء فى هواء الليل المشبع بالرطوبة : أوه ، ليدى . لا توجهى لى اية أسئلة . أريد منك فقط أن تخبرينى عن شيئين : هل زوجى موجود الآن بالمنزل ؟ .. وهل هم قد نقلوا جثمان فانى لتدفن فى الكنيسة ؟

ـ لقد خرج المستر تروى من المنزل قبل خروجى أنا مباشرة . وهم على وشك نقل جثمان فانى خلال فترة قصيرة . ولقد أخبرت جميع الناس انك لست على ما يرام . وهم يعتقدون انك موجودة فى غرفة نومك بالدور العلوى . أوه يا سيدتى اننى لمسرورة للغاية لأننى عثرت عليك !

ـ شكرا لك يا ليدى . لسوف نعود الآن الى المنزل فى هدوء عن طريق الشارع الخلفى . ولا أستطيع ان أحكى لك ما حدث بينى وبين زوجى . ولكنى

يا ليدى أقول لك شيئا هاما : وهو أنك اذا تزوجت فى أى وقت من الأوقات .. وآمل الا تتزوجى عـلى الاطلاق .. ستجدين نفسك فى موقف مخيف ومريع . وعندئذ لا ينبغى عليك أن تلوذى بالفرار والهرب . فالنساء اللاتى ليس لديهن اعتزاز بالنفس هن فقط اللاتى يلجأن للهرب . عليك فقط بالبقـاء فى المكان الذى تقيمين فيه وعرضى نفسك للتقطيع اربا اربا . وذلك هو ما سأفعله !

الفصل الحادى والثلاثون

وأين كان الرقيب تروى فى تلك الأثناء ؟ عندما غادرت زوجته المنزل فى منتصف الليل عكف أولا على تركيب غطاء النعش ، ثم ألقى بنفسه على سريره بدون أن يخلع ملابسه وراح يسترجع فى ذهنه تسلسل الأحداث فى ذلك اليوم حيث قرر أن يظل مستيقظا حتى الصباح .

لقد انطلق بالعربة الى كاستربرج ومعه العشرون جنيها التى أخذها من باتشيبا بالاضـــافة الى سبعة جنيهات أخرى كان قد ضمها الى العشرين جنيهـا .

وكان قد وصل الى كوبرى جراى في الساعة العاشرة الا خمس دقائق لكى يقابل فانى في الموعد المحدد معها . وكان مبلغ الـ ٢٧ جنيها موجودا فى جيبه .

ولكن فانى لم تحضر فى الموعد المتفق عليه . فظل واقفا لمدة نصف ساعة أخرى ولكنها لم تحضر فخطر على ذهنه أن هذه هي ثانى مرة تعطيه فيها موعدا ولا تحضر فى الوقت المحدد رغم أهمية الموعد معه . فأقسم فى غضب الا يرتبط معها فى أى موعد آخر بعد ذلك ، وقفز عائدا الى عربته ، وانطلق متجها الى سباق بادماوث للخيول .

ولكن ضميره استيقظ واقتنع بضرورة عدم انفاق نقوده هناك . الا أن الدنيا كانت قد اظلمت قبل مغادرته بادماوث . وفى طريق عودته الى منزله ، خطر على ذهنه لأول مرة أن المرض ربما هو الذى منع فانى من الحضور اليه فى الموعد المحدد بينهما . وبدأ يشعر بالأسف والحزن لأنه لم يسأل ويتحر عنها فى كاستربردج . الا أنه لم يكن مهيئا أو مستعدا على

الاطلاق لتلقى الصدمة الرهيبة التى كانت تنتظره لدى دخوله من باب منزله .

وما أن ظهرت الملامح الأولى للصباح حتى خرج من المنزل وذهب الى فناء الكنيسة وشاهد القبر الذى حفر من أجل فانى . وبعدئذ ذهب بسرعة الى كاستربردج سيرا على الأقدام وأصدر تعليماته باعداد بلاطة الضريح (وهى الشاهد الذى يوضع على الضريح) لكى توضع على قبرها فى نفس ذلك اليوم وقد بلغ ثمن تلك البلاطة سبعة وعشرين جنيها .

وفى تلك الليلة عاد الى فناء الكنيسة متسللا ومتخفيا لكيلا يراه أحد نثر الزهور حول بلاطة الضريح التى كانت قد نقشت عليها هذه الكلمات : هذا الشاهد قد وضع على هذا القبر بمعرفة فرانسيس تروى تعبيرا عن حبه الأبدى لفانى روبين وتخليدا لذكراها العطرة . ثم انسل خارجا من فناء الكنيسة دون أن يراه أحد وانطلق سيرا على الأقدام سالكا الطريق المؤدى الى البحر .

وكانت هنـاك عـوامل كثيرة حفزتـه الى ترك وذربى منها اشمئزازه من الحياة الريفية والذكريات الحزينة المترتبة على موت فانى والرغبة فى الهرب من زوجته • وراح يتجول الى أن ظهر أمامه شاطىء البحر فى نهاية الأمر • وبدأ ينزل على الصخور المنحدرة منجها الى خليج صغير محمى من الأمواج • وكان قد وضع فى خطته أن يستريح ويستحم فى ماء البحر قبل الذهاب الى أى مكان أبعد من ذلك • ثم خلع ملابسه وغطس فى الماء •

ولكن المياه فى تلك البقعة كانت هادئة للغاية بحيث لا تغرى السباح على العوم : فراح يسبح خارجا من فم الخليج الى المياه المتلاطمة • ومن سوء حظه كان هناك تيار قوى ، فجرفه التيار الى اليسار ثم ألقى به الى دائرة واسعة فى عرض البحر •

وهنا فقط تذكر أن ذلك المكان له سمعة سيئة حيث لقى الكثير من السباحين حتفهم هنـاك • ولم

يشاهد فيمـا حوله أى زورق • وخارت قواه تمـاما بسبب محاولاته المستميتة للرجوع نحو الشاطىء •

ولكنه شاهد أخيرا زورقا صـغيرا يجدف فيـه العديد من البحارة الشبان ، فراح يلوح لهم ويصيح • ومن حسن حظه أن الشمس الغاربة قد أظهرت بوضوح جسده الأبيض المتلاطم فوق الميـاه الداكنة فشـاهده الرجال على الفور • فأخذوا يجدفون فى اتجاهه وفى خلال خمس دقائق ابتداء من صيحته الأولى كان هناك اثنان من البحـارة يجذبونه ليلقوا به الى داخـل زورقهم •

وكان هؤلاء البحارة يمثلون جزءا من طاقم سفينة تجارية وكانوا يجمعون المئونة اللازمة لهم • فأعطوه بعض ما عندهـم من مـلابس • وقـرروا انزاله على الشاطىء فى الصباح ثم استأنفوا تجديفهم عبر الخليج فى اتجاه سفينتهم •

وامتد غيابه من الساعات الى الأيام ، فشـعرت باتشيبا بالدهشة والارتيـاح فى آن واحد • الا أن

شعورها بالارتياح لم يدم طويلا . وفى أول يوم سبت يحل عقب اختفائه ذهبت باتشيبا بمفردها الى كاستربردج . وبينما كانت تخترق الجماهير المحتشدة خارج السوق ، **سمعت شخصا غريبا يقول :**

ـ اننى أبحث عن السيدة زوجة تروى . هل هى الموجودة هناك ؟ لدى أنباء حزينة أريد أن أطلعها عليها : لقد غرق زوجها فى الماء ! .

فصاحت لاهثة الأنفاس : لا . ليس هذا صحيحا !

وبعدئذ لم تقل وام تسمع أى كلام آخر . فقد تحطم ضبط النفس الذى تحلت به على مدى الأيام القليلة الماضية . وأظلمت الدنيا فى عينيها وسقطت متهاوية بدون أن ترتمى على الأرض تماما ، حيث تقدم رجل حزين الوجه بسرعة نحوها ، وأمسك بها قبل أن تسقط تماما على الأرض . وكان ذلك الرجل هو بولدوود .

ونظر بولدوود نحو الرجل الغريب مستفسرا منه

حيث كان ذلك الرجل يقف فى تلك الآونة بجواره .

فقال الرجل : لقد غرق زوجها خلال هذا الأسبوع أثناء استحمامه فى خليج لولويند . فقد عثر رجل من حرس السواحل على ملابسه وأحضر الملابس الى بادماوث بالأمس !

وأضاءت نيران غريبة عينى بولدوود واحمر وجهه بالاثارة . وساعدها على النهوض من فوق الأرض ونقلها الى حانة جيوش الملك حيث وضعها فى رفق فى غرفة خاصة . وهناك فتحت عينيها **وقالت فى تمتمة :**

ـ أريد الذهاب الى منزلى !

وغادر بولدوود الغرفة ووقف فى الطرقة ليسترد أنفاسه . فالتجربة كانت هائلة للغاية بحيث لم يتمكن من استيعابها . لقد احتواها بين ذراعيه على مدى تلك اللحظات القليلة السماوية ! وعثر آنئذ على حصانها وعربتها وعرض عليها أن يجلب لها سائقا لكى يسوق لها العربة أو يسوق هو بنفسه لتوصيلها الى منزلها . ولكنها رفضت تلك المقترحات فى رقة وأدب

وأصرت على أن تسوق العربة بنفسها كالمعتاد وكأن شيئا لم يحدث على الاطلاق ٠

وفى وقت متأخر من ذلك المساء جاءت اليها ليدى بينما كانت هى جالسة عند نافذة غرفة نومها ٠ **وتساءلت ليدى فى شيء من التردد** : أينبغى علينا أن نحضر لك بعض الملابس السوداء اللون من أجل أن تظهرى احترامك للرجل الميت ؟

فردت باتشيبا بسرعة : لا ٠٠ لا ٠٠ ليس الآن ٠ فلا داعى لذلك ٠ لأنه لا يزال على قيد الحياة !

فتساءلت ليدى فى دهشة : وكيف عرفت ذلك ؟

فقالت باتشيبا : لا أعرف ٠ ولكنهم لم يعثروا عليه ٠ كما اننى أتوقع أن يكون مماته مختلفا عن هذه النوعية من الوفاة ٠ وانى لواثقة تماما من أنه لا يزال على قيد الحياة !

وظلت باتشيبا واثقة تماما من أنه ما زال حيا حتى حلول يوم الاثنين ، حيث حدث أمران أثارا الشكوك فى ذهنها ٠ الأمر الأول كان بمثابة خطاب مرسل من طبيب شاب الى الجريدة المحلية ٠ فقد ذكر أنه كان يمر جوار الصخرة أثناء غروب الشمس فشاهد سباحا يكافح ضد التيار خارج بوغاز خليج لولويند فأدرك على الفور أن ذلك الشخص المسكين ليس امامه سوى فرص ضئيلة للغاية فى النجاة ٠ وما أن وصل الطبيب الى مكان آخر يشاهد منه المنظر بشكل أفضل حتى أصبح الظلام سائدا بحيث لم يصبح فى مقدوره مشاهدة أى شيء ٠

والأمر الثانى هو وصول ملابس تروى مع وجود حروف فى الجيوب تبين شخصيته ٠ كان من الواضح انه قد خلع ملابسه وهو يعتزم تماما ارتداءها مرة أخرى بعد أن ينتهى من الاستحمام ٠ ولكن فلنفرض أنه قد سار وراء فانى الى العالم الآخر بشكل متعمد ولكنه قد لجأ الى هذه الوسيلة لكى يبدو موته وكأنه جا على هيئة حادثة ٠ كان هذا أمرا ممكنا ٠ الا أن هذا

لم يحجب عن باتشيبا احتمالا آخر · وهو احتمال أقل شؤما بالنسبة لتروى وأكثر شؤما بالنسبة لها ·

وفى وقت متأخر من ذلك المساء كانت باتشيبا جالسة بمفردها بجوار النيران · وأمسكت ساعة تروى التى أعيدت اليها مع ملابسه ، وفتحت الغطاء الموجود أسفلها مثلما فعل هو ذلك أمام ناظريها منذ أسبوع · وهنالك وجدت خصلة الشعر الصفراء الصغيرة التى أشعلت هذا الانفجار الهائل مثل الشرارة ·

فقالت لنفسها : كان هو ملكها وكانت هى ملكا له · وأنا لا شيء بالنسبة له أو بالنسبة لها · فلماذا ينبغى على الاحتفاظ بشعرها ؟

وأمسكت كتلة الشعر فى يدها ورفعتها فوق النيران · **ولكنها اضافت قائلة وهى تسحب يدها :** لا · لن أحرق هذا الشعر · سأحتفظ به تذكارا لها · تذكارا لتلك الفتاة المسكينة !

الفصل الثانى والثلاثون

ومر الخريف والشتاء واستمرت باتشيبا فى اشرافها على سير العمل بالمزرعة · ولكنها كانت قد فقدت الاهتمام بهذه الشئون وأخيرا كلفت جبرييل بالعمل كمدير للمزرعة ·

وبعد ذلك بفترة قصيرة وجه بولدوود الدعوة لجبرييل لكى يدير له المزرعة السفلية أيضا · فرفضت باتشيبا فى بادىء الأمر ، ولكنها عادت فوافقت على ذلك · وقالت أنه يمكن لجبرييل أن يدير المزرعتين بسهولة اذا خصص له حصان لنقله بسرعة بين المزرعتين · وبالطبع تجددت آمال بولدوود فى الزواج

من باتشيبا • وطبقا للقانون لا يعتبر تروى ميتا الا بعد مرور سبع سنوات على اختفائه وبعد ذلك يمكن لباتشيبا الزواج مرة أخرى • وانتظر بولدوود الفرصة لكى يذكر هذه الحقيقة ثم جاءت فرصته ذات يوم من أيام فصل الصيف •

كان أكثر أيام السنة مرحا وانشغالا وضوضاء بسبب مهرجان سوق الأغنام العظيم الذى يعقد فى جرينهيل حيث كانت بقايا المتاريس الدفاعية القديمة تشكل حائطا هائلا حول قمة تل •

وبحلول منتصف الفترة الصباحية كانت آلاف الأغنام الوافدة من جميع أرجاء وسيكس قد تجمعت هناك حيث كان كل قطيع يتجمع فى حظيرة مستقلة تحرسها كلاب الحراسة الخاصة بالقطيع •

وعند الطرف الآخر من المتاريس الدفاعية الترابية ، كان يتم انشاء خيمة كبيرة مفتوحة من أحد الجوانب لكى تضم أفضل المقاعد من أجل مشاهدة العرض المسرحى • وبالقرب منها كانت هناك خيمتان

صغيرتان للملابس التى تخص الممثلين • وفى أحد هاتين الخيمتين كان هناك شاب جالس على الأرض فوق العشب وقد ارتدى ملابس التمثيل الخاصة به • وكان ذلك الشاب هو الرقيب تروى !

وكان تروى قد سافر لمسافات بعيدة منذ اختفائه • فالسفينة التى أنقذه رجالها ، كانت بحاجة الى بحار آخر فانضم تروى الى طاقم السفينة التى قامت برحلة الى الولايات المتحدة • فراح ينتقل من مكان لآخر فى أمريكا ويكسب رزقه عن طريق تعليم المهارات التى كان قد اكتسبها فى الجيش • الا أنه بعد شهور قليلة بدأ يكره هذه النوعية من الحياة وظلت فكرة العودة الى مزرعة وذربرى العليا تراوده حيث يمكنه العيش فى مسكن مزود بكل وسائل الراحة •

وأخيرا عاد الى انجلترا بطريق البحر ولكنه ما أن هبط على شاطىء ليفربول فى شهر يوليو حتى بدأت تساوره الشكوك • فباتشيبا لم تكن هى المرأة التى

تعاني في صمت . فكيف يمكنه تحمل العيش معها ؟ واذا فشلت المزرعة فانه سيصبح مسئولا عن الاحتفاظ بها واعاشتها . ويا لها من حياة عسيرة اذا عاش معها في فقر مدقع بينما شبح فاني الموجود دائما بينهما يثير أعصابه ويلهب كلماتها بالمرارة والحسرة !

ولذلك فقد أجل عودته الى المزرعة وعندما تقابل مع مجموعة من العازفين المتجولين قرر الانضمام اليهم . وفي العرض الذي كان سيقدم في جرينهيل بعد ظهر ذلك اليوم الدافيء من شهر سبتمبر ، كان تروى سيقوم بدور ديك توربين قاطع الطرق الشهير !

وعندما نظر تروى من خيمته الخاصة بخلع الملابس ، أصيب بالهلع والصدمة عندما شاهد زوجته جالسة مثل الملكة المتوجة في وسط صفوف المقاعد الغالية الثمن . ورغم أن ملابس التمثيل التي يرتديها والمكياج الذي يضعه على وجهه يخفيان شخصيته ، الا أن زوجته سوف تتعرف عليه بالتأكيد من خلال صوته . لقد أقدم على هذه المخاطرة وهو يدرك أن

شخصا ما من وذربرى قد يتعرف عليه . ولكن ها هي باتشيبا موجودة بنفسها والسحر والجمال يشعان منها كالمعتاد . ولم يكن يتوقع منها أن تمارس كل هذا النفوذ عليه بنفس هذه السرعة .

وبعدئذ أحس بالخجل من نفسه فجأة لأن هذه الزوجة الشابة الجميلة التي تحتقره بالفعل سوف تحتقره أكثر وأكثر اذا اكتشفت أنه يعمل في هذه الوظيفة المتواضعة مع الفرقة المتجولة .

وراح تروى يفكر بسرعة . وعثر بسرعة على مدير الفرقة وقال له : يوجد بين المشاهدين هناك رجل لا أحب أن أراه . فأنا مدين له بنقود .. ولسوف يتخذ اجراءات القاء القبض على بمجرد أن أفتح فمي للتكلم وأنا على خشبة المسرح . فما العمل ؟ هل يمكن لك أن تعلن أن توربين قد أصيب ببرد شديد وأنه سيقوم بالدور بدون أن يتكلم ؟

فهز المدير رأسه رافضا وقال : لن أقول لهم أى شيء . عليك فقط أن تقدم لجمهور المشاهدين بعض

النظرات القليلة الخفية والابتسامات الماهرة فى الأماكن السليمة · وعندئذ لن يعرفوا مطلقا أن الكلام قد ألغى تماما ·

وكان هذا الرد معقولا من الناحية العملية نظرا لأن عنصر الاثارة كا نيكمن فى الحركة أساسا وسارت الأمور على ما يرام · وشـعر تروى بالارتيـاح عندما انتهى المشهد التمثيلى · ولكن كان هناك عرض آخر فى المساء تحت ضوء المصابيح · وفى هذه المرة لاحظ فجاة أن بنيوايز مدير المزرعة السابق عند زوجته قد تعرف عليه ·

وعندمـا انتهت المسرحيـة · خرج تروى وراح يبحث فيما حوله · فمن الحكمة أن يبحث عن بنيوايز ويتصادق معه اذا امكنه ذلك · وكان قد وضع لحية كثيفة على وجهه وأخذ يبحث بين جماهير المشاهدين · ثم حـل الظـلام وبدأ الناس يستعدون للانصراف الى بيوتهم ومنازلهم · ولم يعثر على بنيوايز ولكنه سرعان ما اكتشف باتشيبا حيث كانت جالسة فى ركن هادى

من خيمة تقديم المشروبات الخفيفة · وكانت تتحدث مع بولدوود الذى كان قد أحضر لها توا كوبا من الشاى · فدار تروى حول الخيمة من الخارج فى الظلام الى أن أصبح واقفا خلف مقعدها تماما وراح ينظر فى حرص وحذر من خلال فتحة فى قماش الخيمة · وكانت قريبة للغاية من تلك الفتحة حتى أنه كان باسـتطاعته أن يلمسها ·

وفى تلك اللحظة دخل بنيوايز الى الخيمة واتجه الى باتشيبا مباشرة **وقال لها** : لو سمحت · لدى أنباء خاصة تهمك وأود أن أقولها لك وحدك فى أذنك !

فردت عليه فى برود : لا أستطيع سماع أى شيء الآن · وكان قد اعتاد على أن يفضى لها بالأسرار دائما محاولا التقرب اليها من خلال تحطيم سمعة الآخرين ·

فقال لها : سأكتب لك هذا الخبر الهام فى ورقة·

وجذب ورقة من مفكرة وكتب فيهـا : زوجك موجود هنا فى هذا المكان · فقد شاهدته بنفسى · فمن هو المغفل الآن ؟

ثم طوى الورقة وقدمها لهـا . وعندما لم تمد يدها لأخذ الورقة فانه القى بها على ركبتها وخرج من الخيمة .

فقالت باتشيبا فى غير اهتمـام وهى تلتقط الورقة :

ـ أوه . حسن . ربما ينبغى على قراءتها !

وكانت الورقة المطوية فى يدها اليسرى . وعندما ناولها بولدوود طبقا مليئا بالخبز والزبد فانها مدت يدها اليمنى وأنزلت يدها اليسرى بجوارها . وعندئذ جاءت اللحظة المناسبة لتروى . وبسرعة البرق دفع يده فى الفتحة الموجودة فى قمـاش الخيمة وخطف الورقة من بين أصابعهـا وانطلق مهرولا بين طيـات الظلام وهو يبتسم لدى سماعه صرخة الدهشة التى اطلقتها . وبعد دقائق قليلة عثر على بنيوايز فهمس له بكلمات قليلة . ثم انطلقا سويا .

وكانت باتشيبا آنئذ تستعد لقيـادة عربتهـا للعودة الى منزلها . وعندما عرض عليها بولدوود أن يركب حصانه ويسير الى جوارها لم ترفض . اذ كانت مذعورة للغـاية ممـا حدث لهـا فى خيمة المشروبات الخفيفة ، حيث ظنت أن اللص قد اعتقد أن تلك الورقة هى ورقة بنكنوت وربما يحاول السطو عليهـا مرة اخرى أثناء عودتها عبر الطريق .

ونظرا لأن جبرييل كان لا يزال مشغولا بانجاز شئون المزرعة فانها قد حمدت الله على وجود بولدوود بجوارها لحمايتها . وبعد أن قطعا ميلين او ثلاثة أميال تحت ضوء القمر تبادلا أثناءها التعليقات المتفرقة من وقت لآخر **قال بولدوود فجاة وبكل بساطة :**

ـ يا سيدة تروى . هل ستتزوجين مرة أخرى ذات يوم ؟ وشعرت بالارتباك بسبب هـذا السؤال الفجائى . فظلت صامتة لبعض الوقت **ثم قالت :** اننى لم أفكر حديا فى هذا الأمر . اذ لم يتأكد موت زوجى

على الاطلاق وربما لا يزال على قيد الحيـــاة • ولدى احساس غريب بأنه لم يغرق فى البحر ، ولذلك فانا أخجل الآن من التفكير فى الزواج مرة أخرى !

وظلا صـــــامتين لبعض الوقت • **وبعدئـذ قـال بولدوود :**

ـ ولكنك تعرفين أن باســـتطاعتك الزواج مرة أخرى فى خلال ست سنوات اذا لم يظهر دليل واضح يؤكد وفاته • فاذا انتظرتك لحين انتهاء السنوات الست هل تتزوجينني ؟ •• أرجوك يا باتشـــيبا أن تعدينى بذلك • أرجوك أن تعدينى بأنك اذا تزوجت مرة أخرى أن تختارينى زوجا لك !

وكان صوته يموج بالاثارة الشديدة حتى أنها أصبحت على وشـــك الخوف منه فى تلك اللحظة حتى أثناء تعاطفها معه • **فصاحت فى قلـق :** أوه • ماذا سأفعل ؟ اننى لا أستطيع مطلقا أن أحبك على النحو الذى ينبغى أن تحب الزوجة زوجها • ولكننى اذا استطعت أن أدخل عليك السعادة بمجرد أن أعدك أننى

سأتزوجك فى نهاية السنوات الست فاننى سأحاول أن اقدم لك ذلك الوعد فى وقت قريب •

ـ ربما هذا الوقت القريب لا يجيىء أبدا •

ـ لا • اقصـــــد فى وقت قـريب وليـكن فى الكريسماس !

فصاح : فى الكريســماس ! حسن • لن أتطرق الى هذا الموضوع مرة أخرى لحين حلول الكريسماس !

الفصل الثالث والثلاثون

وفى المساء السابق على يوم الكريسماس ، أقام بولدوود احتفالا · وقد دهشت القرية كلها لدى الاعلان عن ذلك الاحتفال . كما لو كانوا قد سمعوا أن قاضيا محترما سيصعد على خشبة المسرح ، أو أن مباريات الكرة ستقام فى الكنيسة ·

ومما لا شك فيه أن ذلك الاحتفال كان يقصد به أن يكون احتفالا مرحا · وراحت النيران الهائلة فى مطبخه تزأر طوال النهار أثناء اعداد الوليمة وبعدئذ أشعلت النيران فى قطع الاخشاب المكدسة بالمدفأة

الموجودة فى الصالة الطويلة · ولكن رغم كل هذا كانت روح المرح مفتقدة ، كما لو كان هناك شبح ما يحوم فى جميع ارجاء الغرف معلنا أن الاحتفال لا يتلاءم مع المكان ومع الشخص الذى يعيش وحيدا هناك ·

وما أن كاد بولدوود يفرغ من ارتداء ملابسه ، حتى وصل اليه جبرييل ومعه تقريره اليومى عن سير العمل فى المزرعة ·

فقال : أوه ·· يا سيد أوك · يداى ترتعشان قليلا ولا أستطيع ربط رباط العنق على نحو سليم · فهل يمكنك أن تربط هذا الرباط نيابة عنى ؟
وبعد أن انتهى جبرييل من ربط الرباط **استطرد بولدوود قائلا فى نشاط محموم** : هل المرأة بوجه عام تفى بوعدها يا أوك ؟

– قد لا تفى بوعدها اذا كان الوعد غير ملائم لها !

فقال بولدوود : لقد سألت السيدة أفردين عما اذا كانت ستتزوجنى عقب مرور سبع سنوات على وفاة

زوجها . فوعدتني بالرد على سؤالى هذا فى هذه الليلة .. وهناك شيء آخر أريد أن أذكره لك . ان نصيبك من الأرباح التى حققتها هذه المزرعة ضئيل للغاية . وأنا انوى التخلى تماما عن ادارتى لمزرعتى فى يوم ما . ولذلك فانا أريد منك ان تكون شريكا لى فى الايرادات فى حالة تركى لمهمة اشرافى على المزرعة . وبعدئذ اذا تزوجتها ..

فقال جبريل فى تسرع : لا تتكلم فى هذا الموضوع يا سيدى . فنحن لا نعرف ما ستسفر عنه الأمور .. وسأحاول أن اكون هنا لكى أحضر الحفلة . ولكنى قد اتأخر فى الحضور حيث لا يزال أمامى بعض الأعمال التى ينبغى انجازها !

وبعد انصراف جبرييل اخرج بولدوود صندوقا صغيرا من درج مغلق بالقفل ، ونظر فى داخل الصندوق . لقد كان يحتوى على خاتم نسائى مرصع بالماس . وبعدئذ سمع أصوات عجلات عند الواجهة الأمامية للمنزل فوضع الصندوق بعناية فى جيبه ثم هبط نازلا الى الدور الأول لاستقبال ضيوفه .

وبينما كان بولدوود منهمكا فى الترحيب بضيوفه كان الرقيب تروى جالسا فى أحد أركان حانة الحصان الابيض فى كاستربردج يدخن التبغ ويشرب الخمور . وفتح الباب ودخل بنيوايز .

فتساءل تروى : هل قابلت المحامى ؟ ألم يكن بالمنزل ؟ ذلك أمر مثير للضيق . ولكنى لا أعرف نوع الخطأ الذى يمكن أن يرتكبه أى رجل اذا أظهرت الدلائل أنه قدلقى حتفه غرقا ، ثم اتضح بعد ذلك أنه لم يمت غرقا !

ثم ضحك ولكنه اضاف فى شيء من القلق : هل تعتقد ان هناك أمورا تدور حقا بينها وبين بولدوود ؟ .. وهل هى شجعته على تكوين علاقة معها على نحو ما ؟

ـ حتى الأمس لم أسمع عن أنها ستحضر الحفلة التى سيقيمها الليلة . وهم يقولون أنها اذا حضرت الحفلة ستكون هذه هى أول مرة تدخل فيها منزله . ويقولون أيضا أنها لم تتحدث معه على الاطلاق منذ أن قابلته فى

سوق جرينهيل . والواحد منا لا يعرف ما هى الأمـور التى يصدقها .. ولكنى متأكد من أنها غير مغرمة به !

فقال تروى : انا غير متأكد من ذلـك . ينبغى على ان أذهب الآن على الفور للعثور عليها .

وقفز واقفا على قدميه وارتدى معطفا ثقيلا رمادى اللون .

وعندما قلب ياقة المعطف لأعلى ، كادت أن تصل الى القبعة التى كان قد جذبها لأسفل فـوق أذنيه . **وقال** : ما رأيك فى منظرى الآن يا بنيوايز ؟ لن يتمكن أحد من التعرف على الآن .

وراح بنيوايز يتفحصه فى تفكير **وقال** : ولمـاذا لا تكتب لها خطابا ؟ .. ان حياتك الماضية كلها ستقفز الى الضوء اذا عدت اليها .

فقال تروى فى غضب : كلام فارغ ! .. ها هى موجودة هنالك ومعها قدر وافر من النقـود ، ولديها مزرعة وخيول وتنعم بالراحة وهانـذا أعيش هنا مثل

الشحاذين .. وعلاوة على ذلك فقد نفذ السهم وفـات الوقت . فبعد ظهر هذا اليوم شاهدنى الكثير من الناس وتعرفوا على شخصيتى . كان ينبغى على أن أعود اليها عقب سوق الأغنام مباشرة ولـكنى سمعت كلامـك عن القانون وعن حقها فى الانفصال عنى .

ـ حسن أيها الرقيب كل ما يمكننى أن أقوله لك الآن هو : لو كنت أنا مكانك لذهبت الى خـارج البلاد مرة أخرى . وآثرت عدم اثارة المتاعب من أجل الرغبة فى العيش معها . يا الهى . سوف تحدث متاعب هائلة اذا رجعت اليها الآن أثناء احتفال بولدوود بالكريسماس !

فقال الرقيب تروى وهو يضحك ضحكات خفيفة:

نعم . فانا أتوقع أن أكون ضيفا ثقيـلا اذا كانت هى موجودة هناك فى الاحتفال . وعلى حد تعبير نص جاء فى احدى المسرحيـات [وعندما أدخـل عليهم سيجـلس الضيوف فى صمت وخـوف وستتلاشى كـل الضحكات ومشاعر البهجة والسرور وستتحول الأضواء الى اللـون الأزرق !] . أوه . انه لأمر مخيف ! املأ كأسى بالشراب يا بنيوايز فجسدى كله ينتفض بالرعب !

وأمسك بالكأس وأفرغ الخمر في حلقة • **واستطرد قائلا** : الساعة الآن السادسة والنصف • لسوف أصل الى هناك قبل التاسعة •

ثم غادر الفندق عقب الادلاء بهذه الكلمات •

الفصل الرابع والثلاثون

عند الحديقة الأمامية لمنزل بولدوود كان يقف مجموعة من الرجال فى الظلام ،وقد تركزت عيونهم نحو الباب الذى كان يفتح من وقت لآخر للسماح بدخول أحد الضيوف •

وقال احد هؤلاء الرجال معلقا فى همس : لقد قال الولد أنه قد شوهد فى كاستربردج بعد ظهر هذا اليوم وانا اصدق كلام هذا الولد • حيث لم يتم العثور على جثمانه على الاطلاق كما تعرفون • فاذا كان لا يزال على قيد الحياة واذا كان موجودا فى هذه المنطقة فمن المؤكد

أنه يضع الخطط الآن لاثارة المتاعب ٠ يا لها من انسانة مسكينة ٠ انني أشفق عليهـــا اذا كان هـذا الخبر صحيحا !

وتوقف عن الكلام لدى سماعه صوت وقع أقدام **ثم قال** : مرحبا ٠ من القادم ؟

فرد هيكل فى الظلام وهو يتقدم نحوهم وينضـم اليهم : أنا وليام سمولبرى ٠ انها ليلة مظلمة ٠ أليس كذلك ؟ فقد كدت ألا ألاحظ اللافتة التى تقع عنـد المجرى المائى والموجودة هنالك فى الوادى ٠٠ ولم يحدث لى ذلك من قبل على الاطلاق ٠ هل يوجد بينكم واحـد من رجال بولدوود ؟ اذ يخيل لى أننى سمعت صوت سام ساموای ؟

فقام سام : نعم ٠ نحن جميعا من رجاله ٠

ثم أضاف فى همس : هل سمعتم هذه القصة الغريبة ؟ ٠

فقال وليام وهو يخفض من صوته : تقصد القصة

المتعلقة بالرقيب تروى ؟ ٠٠ نعم لقد حدثنى عنها ليبان تول توا ٠ وها هوذا قادم نحونا على ما أعتقد ٠ هل سمعت أية أخبار أخرى يا ليبان ؟

فقال ليبان وهو ينضم للمجموعة : لا وأدعو الله أن يكون الخبر كاذبا ٠٠ لأنها كانت عادلة معى دائما رغم أن هنرى فراى وبعض الأشخاص الآخرين يقولون كلاما ضدها ٠ صحيح أنها فتاة حادة المزاج ولكنهـا شجاعة ولا تكذب على الاطلاق مهما أضرت الحقائق بها ٠

فقال وليام سمولبرى : انها لاتكذب على النساء على الاطلاق وتلك حقيقة واضحة ٠ وهى تنتقد الانسان فى مواجهته وليس من وراء ظهره ٠

ووقفوا فى صـمت ٠ كان كل رجل مشغولا بأفكاره الخاصة به ٠ وبعدئذ فتح الباب الأمامى مرة أخرى وظهرت تحت الضوء الخطوط الخارجية المألوفة لهيكل معروف ٠٠ وسار ذلك الهيكل فى بطء على الممر ٠ **فهمس سام قائلا** : انه السيد ٠ يستحسن

ان ننتظر فى هدوء الى آن يدخل · فهو قد يعتقد أنه من غير الملائم أن تقف هنا هكذا تحت الأشجار !

ومر بولدوود بالقرب منهم بدون أن يراهم · ثم توقف عن المسير واستند على البوابة واخذ نفسا عميقا · **وبعدئذ سمعوه يقول** : ادعو الله ان تحضر والا ستكون هذه الليلة بؤسا وشقاء بالنسبة لى !! ·· لماذا يا حبيبتى تسببين لى الحيرة والشك على هذا النحو ؟

وظل واقفا فى مكانه هناك الى أن ترامى اليه صوت عجلات خفيفة هابطة التل · ثم توقفت العربة عند البوابة · وعندئذ أسرع عائدا الى الباب وفتحه · وسطع الضوء على باتشيبا وهى قادمة على الممر · وكبح جماح مشاعره الفياضة أثناء ترحيبه بها ، وسمع الرجال ضحكاتها الخفيفة واعتذاراتها لدى مقابلتها له · وبعدئذ اصطحبها الى الداخل وأغلق الباب مرة أخرى ·

وصاح واحد من رجال بولدوود : يا الهى ! لم أكن أعرف أن الأمور تسير على هذا النحو ! لقد كنت

أعتقد أن تلك الخيالات قد انتهت منذ فترة طويلة · كان ينبغى علينا أن نحكى له على الفور القصة التى سمعناها · وقد يلحق به المزيد من الأذى والضرر على نحو أكثر مما كنا نتصور · مسكين المستر بولدوود · سيكون الأمر صعبا بالنسبة له · لكم تمنيت أن يكون مصير تروى فى الجحيم ! ولعل الله يغفر لى هذه الأمنيات ·· ولكنه رجل شرير وخسيس ، لأنه يلعب الحيل الدنيئة على زوجته المسكينة · ولقد ساءت جميع الأمور فى وذربرى منذ أن جاء اليها · وأنا الآن ليس لدى الرغبة فى حضور الحفلة · هيا بنا نذهب الى الحانة لقضاء بعض الوقت أولا · أيمكن ذلك يا اخوانى ؟!

فوافق سام وليبان ووليام على الذهاب معه · أما الباقون فقد دخلوا الى المنزل · وكان وليام يسبقهم قليلا لدى وصولهم الى الحانة · وفجأة توقف عن المسير والتفت الى زميليه **وقال** : صه !أنظرا هنالك !

كان الضوء المنبعث من أحد نوافذ الحانة يسطع فوق وجه قريب من الزجاج · لم يعد بمقدور أحد أن

يشك فى صحة الرواية التى سمعوها · فقد كان الوجه هو وجه تروى ·

وما أن تعرفوا عليه حتى هرولوا راجعين نحو منزل بولدوود · وتساءل سام : ماذا ينبغى علينا أن نفعل ؟

فقال وليام فى شيء من الشك والريبة : لا شأن لنا بهذا الموضوع !

فقال سام فى اصرار : ان هذا الموضوع يهمنا ·· بل ويهم كل شخص · فنحن نعرف جيدا أن سيدتنا موقفه ضعيف وندرك جيدا أنها لا تعرف شيئا عن ظهور تروى فى المنطقة · لذلك ينبغى علينا أن نبلغها فورا ·· يا ليبان ·· أنت تعرفها بشكل أفضل ولذلك ينبغى عليك أن تتكلم معها فى هذا الشأن ·

فقال ليبان فى عصبية : أنا لا أصلح للقيام بمثل هذه المهمة · وينبغى على وليام أن يفعل ذلك فهو أصلح من أى فرد آخر بيننا · وهو أكبر سنا

وعندما رفض وليام القيام بهذه المهمة اضطر ليبان الى الموافقة على القيام بها على مضض · وما أن وصلوا الى المنزل حتى دخل ليبان بمفرده · ولكنه خرج من المنزل بعد دقائق قليلة قائلا لهم أنه لم يجد الشجاعة التى تعينه على التكلم ·

فقال سام فى تعاسة : يستحسن أن ندخل جميعا الى المنزل · فلربما تسنح لى الفرصة لابلاغ السيدة !

ودخلوا سويا الى المنزل ·

الفصل الخامس والثلاثون

وكان الرقص قد بدأ لتوه فى الصالة الطويلة ٠ ولم تكن باتشيبا موجودة هنا اذ كانت قد قررت البقاء لمدة ساعة ٠ وبعدئذ تتسلل منصرفة بدون أن يلحظها أحد ٠ وبعد مرور ساعة ذهبت باتشيبا الى غرفة الجلوس الصغيرة التى تقع فوق السلالم لكى ترتدى معطفها ٠ وما ان وصلت الى تلك الغرفة حتى جاء اليها سيد المنزل **وقال لها :**

ـ يا سيدة تروى ٠٠ هل من المعقول أن تذهبى الآن ؟ فنحن لم نبدأ الاحتفال الا منذ لحظات ؟!

ـ اننى أود الانصراف الآن ٠ لو سمحت لى !

وكانت تبدو عصبية لأنها قد تذكرت الوعد الذى قطعته على نفسها ٠ وتخيلت الكلام الذى كان على وشك النطق به ٠

وقال بولدوود : لقد كنت أنتظر الفرصة لكى أتحدث معك على انفراد ٠٠ هل تعرفين ما أريد أن أقوله لك ؟

فوقفت صامتة تنظر الى الأرض ٠ **فتساءل فى الحاح وشغف :** هل ستقدمين لى وعدك ؟ ٠٠ ستعدينني بأن تتزوجينى لدى انتهاء السبع سنوات من تاريخ اختفاء تروى ؟!

فقالت باتشيبا فى بطء :

ـ أنا لا أعرف ما هو الشىء الصحيح وليس لدى شخص ينصحنى باتباع ما هو صحيح ٠ ولكنى أعدك ٠ اذا كان ينبغى على أن أعدك الآن !

– اذن قولى لى بصراحة شديدة الآن · قولى أنك سوف تتزوجيننى عقب انتهاء ذلك الوقت ·

فصاحت فى ضيق وعصبية : أوه · لست أدرى· دعنى أذهب لو سمحت ·· اننى قد أنتهك القانون أو القواعد واللوائح التى تسير عليها الكنيسة ، نظرا لأن موت زوجى هو أمر مشكوك فيه · دعنى أستطلع رأى أحد المحامين فى هذا الشأن يا مستر بولدوود !

– أوه · باتشيبا · قولى لى تلك الكلمات يا حبيبتى · تعهدى بأن تكونى من نصيبى ! فأنا أحبك أكثر من أى شخص آخر فى العالم · واذا كنت تعرفين مدى عمق الحب الذى أكنه لك لما تركتينى أعانى كل هذا العناء !

فانفجرت باكية بالدموع وبعد أن استعادت السيطرة على نفسها **قالت فى وقار** : وأنت لن تتوسل الى وتناشدنى أو تطلب أى شىء آخر اذا وافقت ؟ حسن للغاية · اذا لم يعد زوجى سأتزوجك بعد ست سنوات اعتبارا من تاريخ هذا اليوم !

وعندئذ قال : وأنت ستقبلين هذا كهدية منى ·

فصاحت لدى مشاهدتها ذلك الشىء الموجود فى يده · ما هذا ؟ لا أستطيع أن ألبس خاتما · فأنا لا أحب أن يعرف أحد ما وعدتك به · وعلاوة على ذلك فنحن لسنا مخطوبين بالمعنى المفهوم من الخطبة ·· هل نحن مخطوبان ؟ ·· لا تصر على هذا يا مستر بولدوود ·· لا تصر !

ولكنه أمسك بيدها اليمنى ووضع الخاتم فى أصبعها وهو يقول · البسى الخاتم فى هذه الليلة فقط · لمجرد ادخال السرور الى نفسى !

ووافقت وقالت : حسن اذن سألبس الخاتم فى هذه الليلة فقط اذا كنت ترغب بشدة فى ذلك ·

وشعرت انها غير قادرة على المقاومة اكثر من ذلك **فقالت** : والآن اترك يدى ودعنى أذهب ·

فقال بولدوود : هاأنذا أترك يدك · اننى أشعر بالسعادة الآن · بارك الله فيك !

ثم غادر الغرفة . وبعد لحظات قليلة تبعته باتشيبا نازلة على السلالم وقد ارتدت معطفها وقبعتها استعدادا للانصراف من المنزل . ولكنها قبل أن تنصرف توقفت عند أسفل السلم لكى تلقى نظرة أخيرة على تجمعات الناس . وكانت الموسيقى والرقص قد توقفا فى تلك اللحظات . وعند الجانب الآخر من الصالة كانت هناك مجموعة من الناس تتحدث فى همس وبنظرات قلقة . وشاهدهم بولدوود فتساءل عما اذا كان قد حدثت امور تعكر الصفو .

فقال سام ساماواى : انه أمر قد سمعه ليبان . وذلك هو كل ما فى الأمر !

فتساءل بولدوود فى شيء من الحدة : ما الذى سمعت عنه يا ساماواى ؟ اذا كان لديك اى شيء تريد أن تقوله ، فقله على الفور . واذا لم يكن لديك شيء ابدأوا فى رقصة أخرى .

وقال سام موجها كلامه الى ليبان : لقد ر

السيدة تروى الى الدور الأول . فماذا كنت تريد أن تقول لها فيستحسن ان تقول لها الآن !

وفى تلك اللحظات حدث طرق شديد على الباب وفتح أحد الرجال الباب وذهب الى الخارج ثم رجع **وقال :** هناك شخص غريب يريد مقابلة السيدة تروى.

فقال بولدوود : قل له يتفضل بالدخول .

ووصلت الرسالة . وعندئذ وقف عند مدخل المنزل الرقيب تروى متدثرا وملفوفا حتى عينيه بالمعطف الكبير . وأولئك الذين كانوا قد علموا توا بوجوده فى المنطقة قد تعرفوا عليه على الفور . اما باقى الناس فقد نظروا اليه فى حيرة . ولم يلاحظ أحد وجود باتشيبا حيث كانت تقف مستندة على جانب السلم وكان وجهها شاحبا للغاية ، وكان فمها مفتوحا فى دهشة وعيناها تحملقان فى الزائر .

وكان بولدوود من بين الناس الذين لم يدركوا أن ذلك الرجل هو تروى . **فصاح مرحبا :** تفضل أيها

الشخص الغريب .. وتناول معنا مشروبا بمناسبة الاحتفال بالكريسماس !

فتقدم تروى الى منتصف الغرفة وخلع قبعته وأنزل ياقة معطفه وحملق فى وجه بولدوود ثم انخرط فى الضحك . وعندئذ عرفه بولدوود على الفور .

وعندما التفت تروى الى باتشيبا كانت حالتها قد وصلت الى درجة من البؤس والشقاء تجل عن الوصف . اذ خارت قواها وتداعت وجلست هابطة على اخر سلمة كما لو كانت تسائل نفسها عما اذا كان الأمر كله بمثابة حلم رهيب .

وهنا تكلم تروى : يا باتشيبا . لقد جئت الى هنا من أجلك !

فلم ترد عليه .

– تعالى معى الى المنزل . تعالى !

فحركت باتشيبا قدميها قليلا ولكنها لم تنهض واقفة . فاتجه تروى نحوها .

ثم قال : تعالى أيتها المرأة . هل تسمعين ما اقول ؟

وهنا صدر صوت مترام من عند موقد النيران .. صوت أجوف يجىء من بعيد كما لو كان قد تردد فى أرجاءكهف عميق . ولم يعرف أحد أنه صوت بولدوود الا بصعوبة . فاليأس الشديد الفجائى قد أحدث تغييرا هائلا فى طبيعة كيانه كله .

– يا باتشيبا . اذهبى مع زوجك !

ولكن باتشيبا لم تحرك ساكنا . لم تكن قد تعرضت للاغماء . ولكن عقلها كان خاليا تماما من الأفكار . وعندما مد تروى يده ليجذبها نحوه تراجعت هى للخلف . ويبدو أن اظهارها للخوف قد أغضب تروى حيث أمسك بها من ذراعها وجذبها بشدة . ولا أحد يعرف ما اذا كانت قبضته قد آلمتها أو ما اذا كان مجرد لمسه لها هو السبب . ولكنه عندما أمسك بها فانها لوت جسدها كما لو كانت تشعر بالآلام ثم صرخت سريعة منخفضة .

وبعد صراخها بثوان قليلة حدث صوت فجائي يصم الآذان . وهز الصوت الغرفة وملأها بالدخان . وعندئذ اتجهت جميع العيون فى دهشة نحو بولدوود. ففوق موقد النيران الموجود وراءه كانت هناك خطاطيف معقوفة تمسك ببندقيتى رش كما هو معتاد فى البيوت الريفية . وعندما صرخت باتشيبا وهى فى قبضة يد زوجها ، حدثت تغييرات على وجه بولدوود اليائس ، وأطلت من عينيه نظرة مجنونة . فاستدار بسرعة واختطف احدى البندقيتين وأطلق النار مباشرة على تروى .

وسقط تروى على الأرض . وكانت المسافة قصيرة للغاية بين الرجلين . حتى أن الرصاصة لم تنتشر وانما مرت كالقذيفة فى داخل جسده . فأطلق تنهيدة طويلة جافة وتقلصت عضلاته فجأة ثم ارتخت . وبعدئذ تمدد على الأرض ساكنا .

ومن خلال الدخان شاهد الناس بولدوود . وكان لا يزال منهمكا ومشغولا ببندقيته ذات

الماسورتين . وكان قد تمكن من ربط منديله مع زناد اطلاق النيران حتى يتمكن من اطلاق البندقية بقدمه وكان يصوب الماسورة الثانية للبندقية نحو صدره. وكان سام ساموای هو أول من شاهد هذا المنظر فانطلق نحوه بسرعة . وكانت قدم بولدوود قد بدأت تجذب المنديل بالفعل فدوت البندقية بالانفجار مرة أخرى . ولكن ساموای ضرب البندقية بقبضة يده فى اللحظة المناسبة فأطاح بالرصاصة الثانية نحو السقف .

فقال بولدوود لاهثا : حسن . هناك وسيلة أخرى أموت بها !

وأفلت هاربا من سام وعبر الغرفة نحو باتشيبا ثم قبل يدها . وبعدئذ فتح الباب وخرج الى الظلام ولم يفكر أحد فى منعه . فسار فى ثبات وعزم ووصل الى كاستربردج قبل حلول منتصف الليل . وجذب الجرس الموجود خارج بوابة السجن . وعندما جاء البواب قال له بولدوود كلاما بصوت منخفض فسمح له بالدخول ثم اغلقت البوابة مرة أخرى .

وفى تلك الأثناء كانت باتشيبا قد أفاقت من هول الصدمة . وعندما جاء جبرييل عقب اطلاق الرصاص بخمس دقائق كانت باتشيبا جالسة على الأرض بجوار جسد تروى وقد وضعت رأسه على ركبتها .

ووقفت الفتيات والنساء متجاورات مع بعضهن البعض مثل الأغنام فى حالة حدوث عاصفة أما الرجال فكانوا مضطربين للغاية ولا يعرفون ماذا يفعلون .

وقالت باتشيبا : يا جبرييل . انطلق بالحصان بسرعة الى كاستربردج لاحضار طبيب .. وأعتقد أن حالته خطيرة للغاية وميئوس منها . ومع ذلك أرجوك أن تذهب الآن على الفور . فقد أطلق المستر بولدوود النار على زوجى .

وجاء تعليقهـا على الحادث فى كلمـات هـادئة وبسيطة . ولكنها كلمات تركت تأثيرا أعنف مما لو قيلت فى انفجار وحشى . وانتظر جبرييـل للحظات قليلة لكى يسمع الحقائق المجردة فقط ثم أسرع ليضع

السرج فوق حصان وانطلق مسرعا . وبعد أن قطع مسافة تزيد على ميـل خطر على ذهنه أنه كان ينبغى عليه ايفاد أى شخص آخر .

ترى ماذا حدث لبولدوود ؟ .. هل فقد عقله وجن جنونه ؟ .. أم هل كانت هناك مشاجرة ؟ .. ومن أين جاء تروى بعد أن افترض الجميع أنه قد استقر فى قاع البحر ؟ .. وادرك أن الوقت لا يسمح بايفاد مندوب آخر نيابة عنه فأستمر فى انطلاقه بالحصان ولم يلحظ أثناء مشاعر الاثارة التى اجتاحته أن هناك هيكلا ما مالوفا له يجوس فى الظلام فى نفس الاتجاه التى يسير هو فيه .

وبعـد أن عثر جبرييل على الطبيب قرر أن يبلغ الشرطة . ولذلك انطلق الدكتور الدريتش بمفرده ودهش للغاية عندما ادرك أن باتشيبا قد قامت بنقل الجسد الى بيتها بدلا من الانتظار لحين مجىء الضباط القائمين على تنفيذ القوانين . وأخبرته خادمة : انهـا قالت انها لن تترك جثمان زوجها العزيز ملقى هكذا على الأرض وعرضة لحملقة الناس فيه .

وعندما وصــــل الطبيب الى الباب الأمامى لمنزل باتشيبا قابلته ليدى **وقالت له** : لقد نقلوه الى غرفة النوم بالدور العلوى • وطلبت منى سـيدتى أن أملأ الحمام بالماء • وبعدئذ أغلقت الباب بالمفتاح ولم تسمح لأى شخص بالدخول • ولكنهـا قالت لى أن أخبرهـا عندما تجىء يا سيدى •

وفى هـذه اللحظة وصـل جبرييل مع الكاهن وصعدوا جميعا الى الدور الثانى • كان كل شىء صامتا مثل صمت القبور • وراحت ليدى تطرق على الباب فسمعوا باتشيبا تعبر الغرفة • وعندما فتحت الباب كان وجهها يبدو هادئا الا أنه كان باردا وجامدا مثل وجه آلهة الاغريق القدامى •

وقالت : أوه هل وصلت أخيرا يا دكتور الدريتش •• لقد تم عمل كل شىء الآن ويمكن لأى شخص فى العالم ان يشاهده الآن •

ثم مرت بجوارهم ودخلت غرفة أخرى •
وتحت ضوء الشموع شاهدوا هيكلا أبيض اللون

عند الطرف البعيد بالغرفة • ودخل الطبيب ليفحص الجسد بينما انتظر الآخرون بالخارج • وعندما خرج قال فى هدوء • لقد انتهى كل شىء كما قالت • فقد تم خلع الملابس عن الجسد وتم وضعه فى ملابس الدفن بطريقة سليمة •• يا الهى ان هذه الفتاة لها أعصاب من حديد بكل تأكيد !

فهمس صوتها خلفهم : لا • انه مجرد قـلب الزوجة •

وفى تلك اللحظة ارتمت على الأرض فى اغماء • فنقلوها الى السرير وظلت ليدى الى جوارها لرعايتها وطوال الساعات الكئيبة الطويلة لتلك الليلة التعيسة **سمحت سيدتها تتمتم فى يأس مرير** : أوه • انهـا غلطتى ! كيف يتسنى لى العيش ! يا الهى ! كيف يمكن لى أن أعيش !

الفصل السادس والثلاثون

وفي صباح اليوم الأول من مارس .. وكان صباحا عاصفا خاليا من ضوء الشمس . احتشد جمهور عند قمة تل يالبري . كان بعض الناس من وذبري ، وبعضهم الآخر من كاستربردج . وكان ذلك الحشد يضم بعض كبار الموظفين الراكبين في عرباتهم . وأخيرا شوهدت عربة أخرى آخذة في الاقتراب ووصل قاضي المحكمة العليا وتم استقباله بطريقة رسمية تشريفاتية سليمة .

وقال جوزيف بورجراس عندما واصل الموكب المسير الى كاستربردج : كانت هناك رحمة في عينيه !

وقال جان كوجان : ولكنني لن أذهب الى المحاكمة وأنا أنصح باقي المجموعة من رجالنا بالابتعاد وعدم الذهاب لأن المستر بولدوود سيشعر بالضيق اذا شاهدنا هناك ونحن نحملق في وجهه كما لو كان معروضا علينا للتعرف على شخصيته .

فوافق الآخرون على رأيه وانتظروا جميعا في قلق لحين حلول اليوم التالي . وفي تلك الأثناء تحول انتباههم الى اكتشاف تم التوصل اليه في فترة ما بعد الظهر . اذ ألقى هذا الاكتشاف المزيد من الضوء على سلوك بولدوود وحالته النفسية أكثر من أية تفاصيل أخرى كانت معروفة حتى ذلك الوقت . فأولئك الذين يعرفونه جيدا قد لاحظوا أن حالته أصبحت غير طبيعية ، ومليئة بالاثارة الشديدة وذلك منذ يوم السوق في جرينهيل حتى حفلة الكريسماس ولكن جبريل وباتشيبا هما فقط اللذان قد لاحظا في أوقات مختلفة أن توازن عقله قد تعرض للتشويش والاضطراب على نحو خطير للغاية .

وقد تم اكتشاف مجموعة أشياء غير عـادية فى دولاب مغلق بالمفتاح · وكانت هــذه الأشــياء هى مجموعات عديدة من الأقمشة الحريمى الغالية الثمن، والتى لها نفس الألوان التى تفضلهـا باتشيبا ، هذا بالاضافة الى فراءين جميلين · وعـلاوة على ذلك كان هناك صندوق مجوهرات يضم : حلقان ذهبية وقلادات ذهبية غالية الثمن · وكانت كل هذه الأشياء مغلفـة بعناية فى شـكل طرود مكتوب عليها : « باتشـيبا بولدوود» وعليها تاريخ محدد مقدما بعد ست سنوات·

وتلك التأملات الحزينة عن حالته العقلية كانت تتم مناقشتها بالحانة عندما عاد جبرييل من كاستربردج ومعه أنباء عن المحاكمة · وكان وجهه معبرا عن الموقف لقد اعترف بولدوود ــ كما توقع الجميع ــ بارتكـابه لهذه الجريمة وأصبح من المقرر اعدامه شنقا ·

وكان كل شخص آنئذ واثقا أن لم يكن مسئولا من الناحية الاخلاقية عن تصرفاته · ولم تكن هنـاك معلومات كافية قبل المحاكمة بحيث يأمر القاضى باعداد

تقرير طبى عن حالته العقلية · ولكن النـاس أرسلوا خطابا جماهيريا موجها لوزير الداخلية · يطلبون فيـه اعادة النظر فى قضية بولدوود مع ذكر الأسباب التى تدعو الى ذلك وذكروا فى خطابهم عبارات تدل على أن الجريمة كانت نابعة من اختلال عقلى وليست اغتيـالا متعمدا ·

وتحدد موعد تنفيذ الحكم شنقا فى تمام الساعة الثامنة من صباح السبت ، عقب مرور حوالى أسبوعين على تاريخ المحاكمة · وبحلول فترة ما بعد ظهر يوم الجمعة ، لم يصل من لندن أى رد على الرسالة الموجهة لوزير الداخلية ·

وامضى جبرييل ساعتين مع السجين ثم استودعه وأثنـاء عـودته الى المنزل خرج نصف سكان القرية لملاقاته عند منتصف الطريق فقال لهم فى اعياء :

ــ ليست هناك أية أنبـاء جديدة · وأخشى ألا يكون هناك أى أمل ·· ولكننى أريد منك يا ليبـان ان تذهب بالحصان الليلة الى المدينة لتسأل مرة أخرى·

فقالت ليدى : أمل أن ينجو بحياته .. انه اذا تم اعدامه ستفقد سيدتى عقلها وتصاب بالجنون . يا لها من انسانة مسكينة ! لقد تعرضت للمعاناة الرهيبة . فهى من سنتين فقط كانت فتاة خالية البال بعيدة عن الهموم . ولكنها الآن قد تغيرت تماما بحيث لا يمكن للمرء الذى لم يشاهدها فى الآونة الأخيرة ان يتعرف عليها .

وانطلق ليبان تنفيذا للتعليمات الصادرة له ..

وفى تمام الساعة الحادية عشرة مساء فى تلك الليلة خرج الجميع الى طريق كاستر بردج لملاقاته . وأخيرا ترامى الى سمعهم من بعيد أصوات وقع أقدام الحصان وبعدئذ سمعوا صوت ليبان وهو يصيح بأعلى صوته : لن يموت ! سيظل موجودا فى السجن الى أن يصدر أمر ملكى !

فصاح جان كوجان مهللا فى فرح وابتهاج : عظيم جدا ! ان عدالة السماء فوق كل شيء !

الفصل السابع والثلاثون

وتماثلت باتثنيبا للشفاء فى الربيع الا أنها ظلت منفردة بنفسها ووحيدة فى معظم الأوقات ، ولم تنطلق بحصانها لتفقد مزرعتها على الاطلاق . وكانت تتجنب التحدث مع اى شخص بل ومع ليدى ذاتها .

وبعدئذ وفى مساء أحد أيام اغسطس أخذت تتجول فى القرية لأول مرة منذ الكريسماس . وعندما وصلت فى سيرها الى فناء الكنيسة ، فتحت البوابة واتجهت الى الركن الذى دفنت فيه فانى روبين . وأشرق وجهها فى شيء من الرضا والارتياح عندما قرأت الكلمات

المكتوبة على الشاهد الخاص بقبرهـــا . كان الجزء العلوى من الشاهد مكتـــوبا عليه كلمات تروى التى كتبها فى ذكـرى فانى . وتحت تلك الكلمات وجدت الكلمات الجديدة التى تم نحتها على الشاهد :.وفى نفس هذا القبر يوجد جثمان فرانسيس تروى سالف الذكر أعلاه مع وجــود تاريخ يعقب تاريخ وفاة فانى بأربعة عشر شهرا .

وبينما كانت واقفة هنالك ، صدحت أنغـــام موسيقية من داخل الكنيسة ، فاستدارت متجهـة الى الباب ، وراحت تصغى . كان البـــاب مغلقا . وكان الأولاد بالداخل يتدربون من أجل صلوات يوم الأحد . وأحدثت النغمة التى يترنمون بها تأثيرا شديدا على وجدانها ومشاعرها فامتلأت عيناها بالدموع .وسرعان ما انفجرت بدموع غزيرة ، وفى مرارة شديدة .ونظرا لأن وجهها كان مدفونا بين يديها فانها لم تلحظ اقتراب هيكل منها . ولكنها عنـدئذ رفعت وجهها ونظرت لأعلى .

وصاحت : مستر أوك ! منذ متى كنت هنا ؟ .. هل ستـدخل الكنيسة ؟ .

- كنت أنوى الدخول الى الكنيسة . فأنا واحد من المنشدين . ولكن طالما أنك موجودة هنا فان هناك أمرا ما أريد أن اذكره لك . فأنا قد اضطر الى ترك العمل فى مزرعتك بعد وقت قصير يا سيدة تروى . فأنـــا أفكر فى ترك انجلترا .. ليس الآن ولكن فى خلال موسم الربيع القادم !

فقالت فى دهشـــة واحبـاط شـــديد : تترك انجلترا ؟!! لماذا يا جبرييـــل .. ولأى شيء تفعـــل ذلك ؟ .. فكل شـخص يعتقد أنك ســـتأخذ مزرعة بولدوود وتديرها لصالحك . وعلى مسئوليتك !

- لقد عرض على ذلك . هذه حقيقة . ولكننـــا لم نتفق بعد ذلك . وأنا لدى الأسباب والدواعى التى تدعونى لمغادرة انجلترا . ولســـوف انتهى من عملى هناك كمدير للمزرعة فى نهاية السنة ولن أمد الفترة بعد ذلك !

– وكيف يمكن لى انجاز الأمور بدونك ؟ لقد ظللت معى يا جبرييل لفترة طويلة للغاية وعشنا معا الأيام الحلوة والأيام المرة العصيبة . وأصبحنا صديقين حميمين . ثم بعد ذلك تريد أن تتركنى وتذهب بعد أن أصبحت لا حول لى ولا قوة أكثر من أى وقت مضى !

فقال جبرييل فى حزن وكآبة : نعم . وذلك هو الحظ العاثر فى هذا الأمر .. ان يأسك وعجزك وضعفك هو الذى يجعلنى أشعر بضرورة الذهاب .. طاب يومك يا سيدتى !

وترك فناء الكنيسة سالكا ممرا بحيث لا يمكنها السير وراءه تحت أى ادعاء مهما كان السبب .

وبدا عليه على مدى الشهور القليلة التالية أنه يحاول تجنبها بقدر ما يستطيع . وعندما كان يريد منها شيئا كان يبعث لها برسالة أو ورقة لا تحمل توقيعه وكانت هى ترد عليه بنفس هذه الوسيلة .

وبدأت تعانى من أسوأ الأمور عذابا .. تعانى من الاحساس بأنها محتقرة . وحل موعد الكريسماس التالى . وفى صباح اليوم التالى تلقت خطابا رسميا يعلنها فيه رسميا بأنه سيترك الخدمة عندها فى آخر شهر مارس .

وجلست باتشيبا وراحت تبكى بسبب وصول هذا الخطاب اليها . وكانت قد بدأت تنظر الى حب جبرييل الميئوس منه على أنه مماثل لحبها العديم الجدوى على مدى الفترات المتبقية من حياته .

وشعرت بالاساءة لأنه قد أنهى فترة حبه الفاشل على ذلك النحو ليصبح حرا طليقا ، ويبدأ حياة جديدة بعيدا عنها . وكيف يمكن لها أن تدير شئونها بدونه ؟ .. وأحست بالتعاسة الشديدة كما شعرت أنها فى مسيس الحاجة الى الشفقة عليها والتعاطف معها حتى أنها قامت على الفور بارتداء عباءتها وقبعتها واتجهت نحو كوخ جبرييل عقب غروب الشمس مباشرة وتحت الأشعة الشاحبة للقمر الجديد .

وكانت أضواء النيران تسطع من احدى النوافذ ، الا أنها لم تشاهد أحدا بالداخل ، فراحت تطرق فى عصبية • ففتح جبرييل الباب وسطع القمر على وجهه •

وقالت باتشيبا فى ضعف واعياء : المستر أوك ؟

فقال جبرييل : نعم أنا المستر أوك •• من أنت ؟ •• أوه •• يا لى من شخص غبى لاننى لم أعرفك على الفور يا سيدتى • تفضلى بالدخول ! •• سوف أحضر مصباحا • من النادر جدا أن تزورنى سيدة ولذلك فأنا لا أحتفظ عندى بكرسى وثير مريح • فجميع الكراسى عبارة عن مقاعد خشبية • ولكن تفضلى بالجلوس !

واحضر كرسيا لها لكى تجلس عليه •

فقالت : لا داعى لأن تتعب نفسك بشأن ضرورة احضار مصباح •

ثم جلست على الكرسى وجلس هو الآخر وراحت أضواء النيران تتراقص فوق وجهيهما • ولكنهما شعرا بالارتباك والحرج والخجل • فهما عندما كانا يلتقيان فى الحقول أو فى منزلها لم يكن يعتريهما اى قلق أو ارتباك ولكن ما أن اضطر جبرييل للترحيب بها كضيفة فى منزله حتى شعرا سويا كأنهما غرباء •

واستطردت هى قائلة : يا جبرييل • اننى أشعر أننى قد أسأت اليك بشكل أكيد ، وأن هذا هو السبب فى أنك ترغب فى ترك البلاد والابتعاد عنى • وأنا قد تضايقت كثيرا حتى أننى قررت المجيىء اليك !

ـ أسأت الى ؟ كيف تسيئين الى يا باتشيبا ؟ • ومع ذلك فأنا لن أترك البلاد • فسوف أصبح سيدا على مزرعة وذربرى السفلى • وكنت أنوى الاستمرار فى ادارة شئون مزرعتك فى نفس الوقت مثلما كنت أفعل من قبل لو لم يقل الناس كلاما عنا سويا !

فقالت باتشيبيا فى دهشة : ماذا ! يقولون كلاما عنى وعنك ؟ ماذا يقول الناس عنى وعنك ؟!

فقال جبرييل : وهو شىء حقيقى تماما أيضا ! فانا اقيم هنا فى هذا المكان منتظرا الحصول على مزرعة بولدوود المسكين بهدف الزواج منك فى يوم ما · هذا هو الكلام الذى يقولونه · وأنت قد طلبت منى أن أقص عليك ما يقوله الناس ولذلك يجب عليك ألا تلقى باللوم على ·

ولم يظهر الانزعاج الشديد على وجه باتشيبيا مثلما كان جبرييل يتوقع · اذ قالت باتشيبيا فى هدوء : من أجل الزواج منى ؟ ·· انه من السخف التفكير فى مثل هذا الأمر فى وقت قريب الغاية ·

ـ نعم · انه من السخف بالطبع · وأنا لا أرغب فى أى شىء من هذا القبيل · فانت آخر انسانة فى العالم أفكر فى الزواج منها !

ـ ان ما قلته هو : [فى وقت قريب للغاية] ·

ـ لو سمحت · لقد قلت [من السخف للغاية] وأنا أقول أيضا انه من السخف للغاية أن يتم ذلك !.

فقالت وقد امتلأت عيناها بالدموع : معذرة آسفة · كل ما كنت أعنيه هو [فى وقت قريب للغاية] وهذا هو ما كنت أقصده حقا · ويجب عليك : تصدقنى !

وهنا نظر جبرييل نظرة عميقة فى وجهها وقال فى حنان وهو يقترب منها : ياباتشيبيا ·· أود ان أعرف شيئا واحدا · أود أن أعرف ما اذا كنت ستسمحين لى بأن أحبك وأن أتزوجك برغم كل شىء ·· لو كنت فقط أعرف ذلك ؟!

فقالت باتشيبيا فى تمتمة هادئة : ولكنك لن تعرف مطلقا لأنك لا تسأل مطلقا ·

فضحك جبرييل فى ابتهاج وسعادة : أوه ·· أوه يا عزيزتى ··

فقاطعته باتشيبيا قائلة : ما كان ينبغى عليك أن

ترسل الى ذلك الخطاب القاسي فى هذا الصباح · لقد كنت قاسيا للغايه معى · لأننى كنت أول حب لك وأنت كنت أول حب لى · ولن أنسى هــذه الحقيقه الساطعة !

فقال ضاحكا : أنت تحـاولين مضــايقتى الان يا باتشيبا ·· فانت تعرفين الأسباب التى دعتنى الى ذلك · فانا كنت أقوم بعمـل صعب حيث كنت أدير المزرعة لامرأة شابة وجميلة وجذابة · خاصة وأن الناس كانوا يعرفون اننى مغرم بك · وقد خشيت أن الكلام الذى قالوه قد يضر باسمك وسمعتك ·

فصاحت : أكان ذلك هو كل ما فى الأمر ؟ كم أنا مسرورة الآن لأنى قد جئت اليك ! والآن ينبغى على أن أعود الى منزلى والا سيقوم الناس بالبحث عنى !

ثم اضافت ضاحكة : لماذا يبدو الأمر يا جبرييل وكأننى قد جئت اليك هنا لأطلب منك أن تتزوجنى ؟ يا له من شىء مريع !

فقال جبرييل : وهو شىء حقيقى تماما أيضـا !

فانا قد تتبعتك وسرت وراءك ·· مثل الكلب المخلص على مدى أميال عديدة طويلة ·· وأيام ممتدة لا نهائية ·· يا حبيبتى الجميلة باتشيبا ·· ولا يمكن لك أن تندمى أو تتذمرى بسبب قيامك بهذه الزيارة الوحيدة !

الفصل الثامن والثلاثون

« أريد احتفالا مغلقا وسريا ومبسطا للغاية » ..
كانت تلك هى رغبات باتشيبا . وكان أول شىء ينبغى على جبريل انجازه هو الحصول على تصريح رسمى بالزواج الفورى .. وبدون اعلام جماهير الناس عن ذلك بالكنيسة كما هو معتاد .

وبعد ليال قليلة وأثناء عودته من كاستربردج عقب الحصول على التصريح ووضعه فى جيبه تقابل مع جان كوجان ، فسارا سويا عبر القرية الى أن وصلا الى حارة تقع خلف الكنيسة ، وتؤدى الى كوخ ليبان تول

الذى كان قد عين مؤخرا كاتبا للابرشية ، وأصبح عليه تسجيل جميع حالات الزواج .

قال جبريل : حسن . مساء الخير يا جان اننى ذاهب فى هذا الاتجاه !

فقال جان مندهشا : اوه ! ما الذى يحدث فى هذه الليلة ؟ هل لى أن أسألك ؟

وبدا لجبريل انه من غير الملائم ألا يخبر جان ، لأن جان قد سانده باخلاص طوال فترات تعاسته مع باتشيبا **فقال له :** هل يمكنك أن تحتفظ بالسر يا جان ؟

ـ أنت جربتنى من قبل وأنت تعرف عنى اننى احتفظ بالسر ولا افشى الأسرار مطلقا !

ـ نعم . أعرف عنك ذلك . حسن اننى وسيدتنا ننوى الزواج فى صباح الغد !

ـ يا الهى ! لقد فكرت فى مثل هذا الأمر . ولكنك كنت ملتزما بالهدوء الشديد . أتمنى لك السعادة يا جبريل !

- شكرا جزيلا لك يا جان • ونحن لم نكن نريد اللجوء الى مثل هذا التكتم الشديد والسرية التامة • ولكن بعد كل الأحداث الرهيبة التى حدثت أصبح من غير الملائم أن نقيم احتفالات مرحة وبهيجة بمناسبة هذا الزواج • وباتشيبا لا تريد لكافة جماهير القرية أن يحضروا الى الكنيسة • وحقيقة الأمر أنك اذا نظرت لها ستدرك أنها خجولة من ذلك الأمر بعض الشيء • ولذلك فانا التزم بكتمان الخبر احتراما لرغبتها ، ولمجرد أن أدخل عليها السرور • ولكنك يمكنك أن تجيء معى الآن لنقابل ليبان • فمن المؤكد أنه سيكون عند باب الكنيسة فى تمام الساعة العاشرة •

وقال جان اثناء سيرهما سويا : أخشى أن تضيع كل جهودك ومحاولاتك للتكتم وابقاء هذا الموضوع فى سرية تامة • لأن زوجة ليبان ستبادر الى ابلاغ كافة الناس فى الأبرشية فى خلال نصف ساعة • ولكنك اذا تركت هذه المسألة لاعالجها بنفسى فاننى سأنجز كل شيء بدون أن تعرف هى اى شيء !

وسرعان ما تم انجاز هـذا الموضوع فى أمان

وسرية • وبعد أن قاما بزيارة قصيرة للكاهن قال كل منهما للآخر « طابت ليلتك » وذهب جبرييل الى كوخه لكى يعد كل شيء من أجل صباح الغد •

وفى تلك الأثناء كانت باتشيبا قد طلبت من ليدى أن توقظها فى الساعة السابعة صباحا بدون أن تذكر لها السبب فى ذلك • ولكنها استيقظت من تلقاء نفسها فى الساعة الرابعة صباحا • ولم تستطع استئناف النوم مرة أخرى • وبحلول الساعة السادسة شعرت كأن ساعتها قد تعطلت وتوقفت عن الدق ولم تستطع الانتظار أكثر من ذلك • فراحت تطرق على باب ليدى ، واصرت على أن الوقت قد حان للبدء فى تمشيط شعرها وتسويته بالفرشاة •

وعندما جاءت ليدى لم تفهم الأسباب التى تدعو الى كل هذا التسرع والعجلة •

فقالت باتشيبا وقد اطلت من عينيها اللامعتين ابتسامة مازحة : حسن • سأقول لك السبب فى هذا التسرع •• ان المزارع أوك سيحضر الى هنا ليتناول طعام الغداء معى اليوم !

فتساءلت ليدى فى نوع من الشك والريبة : المزارع أوك ؟ بمفرده وبدون أن يكون معه اى شخص آخر ؟ .. وهل من الحكمة أن يجيىء بمفرده يا سيدتى ؟

فضحكت باتشيبا وهمست فى اذن ليدى رغم أنه لم يكن هناك أى شخص آخر موجود بالقرب منهما . **وبعدئذ حملقت ليدى وصاحت :** يا الهى ! يا لها من أخبار مفاجئة ! انها تدفع قلبى الى الدق مثل شىء مجنون !

فقالت باتشيبا : وهى تدفع قلبى أيضا الى الدق فى جنون ووحشية بعض الشىء . ولكن لا مفر الآن !

كان الصباح رطبا وغير بهيج . وفى تمام الساعة العاشرة الا الثلث طرق جبرييل باب باتشيبا .. وبعد عشر دقائق انطلقا سويا سيرا على الأقدام فى الحارة المليئة بالضباب متجهين الى الكنيسة .

وكانت باتشيبا قد رتبت شعرها بنفس التسريحة القديمة التى ظهرت بها من قبل فوق تل نوركومب وذلك بناء على رغبة جبرييل . وفى الكنيسة كان هناك

ليبان تول وليدى والكاهن . وتم اتخاذ اجراءات عقد الزواج فى وقت قصير للغاية .

وفى مساء ذلك اليوم جلس جبرييل وباتشيبا فى غرفة الجلوس فى هدوء تام لتناول الشاى . وكانا قد قررا الاقامة سويا فى منزل باتشيبا نظرا لأن كوخ جبرييل غير ملائم لاحتياجاتهما . وما أن بدأت باتشيبا تصب الشاى فى فنجان حتى انطلقت الرصاصات مدوية من البنادق لتحيى آذانهما أمام المنزل وأعقب ذلك النفخ العنيف فى الأبواق الموسيقية .

فقال جبرييل ضاحكا : ها هم قد عملوها ! لقد ادركت أن أولئك الزملاء كانوا يدبرون لعمل شىء ما بمجرد أن رأيت وجوههم بعد ظهر هذا اليوم !

ثم أمسك بالمصباح وخرج اليهم فسارت وراءه باتشيبا . وسقط ضوء المصباح على وجوه مجموعة من الرجال وعندئذ هتفوا هتافات مدوية على الفور . وفى نفس اللحظة انطلقت البنادق مدوية مرة أخرى كخلفية صوتية للهتافات .. ثم دوت الموسيقى الصاخبة

المجنونة من فرقة القرية الموسيقية · ثم سار المازفون والهاتفون ومطلقو النيران مقتربين من الباب ·

فقال جبرييل : تفضلوا جميعا بالدخول لكى تتناولوا الطعام والشراب معى ومع زوجتى !

فقال مارك كلارك معتذرا : شكرا جزيلا · لا داعى لازعاجكم فى هذه الليلة · سنحضر لكما فى وقت آخر مناسب ولكننا لم نشأ ان ندع اليوم يمر بدون أن نقدم لكما التهنئة الحارة · والف مبروك · وعلى كل حال نكون شاكرين اذا تفضلتم بارسال بعض المشروبات المنعشة لنا فى الحانة · مع أطيب تمنياتنا بحياة طويلة هانئة للزميل أوك وزوجته الفاتنة الجميلة !

فقال جبرييل : شكرا · شكرا لكم جميعا · ولسوف أرسل لكم المشروبات على الفور الى الحانة .. لقد توقعت الحصول على نوع ما من أنواع التحية من جانب أصدقائنا القدامى · وقلت توقعاتى هذه لزوجتى منذ لحظات قليلة ·

فقال جان كوجان بصوت فكاهى وهو يستدير

نحو زملائه : حسن ! ان الرجل قد تعلم كيف ينطق كلمة « زوجتى » بطريقة طبيعية للغاية تدعو للدهشة اذا وضعتم فى الاعتبار هذه الفترة القصيرة للغاية التى امضاها فى الحياة الزوجية · اليس كذلك يا جيرانى ؟!

فقال جاكوب سمولبرى موافقا على ذلك القول : لم أسمع فى حياتى على الاطلاق أى شخص متمرس فى الحياة الزوجية منذ عشرين عاما ينطق كلمة « زوجتى » بطريقة طبيعية أكثر منه · وربما كان الأمر سيصبح أكثر تمشيا مع الطبيعة وأكثر صدقا لو أن هذه الكلمة قد نطقت ببرود أكثر · ولكن ذلك لم يكن متوقعا الآن !

فقال جان وهو يدير عينيه : ذلك التقدم سيأتى بمرور الوقت ·

وهنا ضحك جبرييل وابتسمت باتشيبا ، اذ لم تكن راغبة فى الضحك الآن على الاطلاق ·· ثم استدار أصدقاؤهما وساروا مبتعدين نحو القرية ·